من أنواع العذاب في الآخرة
"العذاب العظيم"
دراسة تفسيرية تحليلية

د/ صبري منصور عبد العزيز صيام
الأستاذ المساعد (المشارك) في التفسير وعلوم القرآن الكريم
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة– جامعة الأزهر الشريف،
وكلية الشريعة والقانون – جامعة تبوك

من٣١ إلى ١٣٠

Among The Types Of Torment On The Day Of Resurrection: The Great Torment - An Interpretive And Analytical Study.

Prepared by
Dr. Sabry Mansour Abdel Aziz Siam
Assistant Professor (Associate) in Interpretation and Sciences of the Holy Qur'an
At the College of Islamic and Arab Studies for Boys in Cairo - Al-Azhar University, and the College of Sharia and Law - University of Tabuk

من أنواع العذاب يوم القيامة العذاب العظيم-
دراسة تفسيرية تحليلية.

صبري منصور عبد العزيز محمود صيام
قسم التفسير وعلوم القرآن الكريم، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة - جامعة الأزهر.
البريد الااللكتروني: sabrymahmoud.4@azhar.edu.eg

- **ملخص البحث:**

إن الله تعالى أرسل رسوله ﷺ، وأنزل كتابه بالحق، ووضح فيه معالم الحق الذي هو قوام الحياة ودستورها، وحث على الامتثال إليه، وحذر من الإعراض عنه، ولقد كثرت آيات الترغيب والترهيب فيه، تصريفا للآيات، وإقامة للحجة، وحثا لهم على الامتثال.

فدار البحث حول صورة من صور الترهيب، وهو العذاب العظيم يوم القيامة، فاستقرأت آياته التي ورد بها، وجلَّيت عن أسبابه في ضوء تلك الآيات، وكشفت عن مستحقيه، وقد أقام الله عليهم الحجة الدامغة، وحاولت قدر جهدي أن أستنبط ما اشتملت عليه تلك الآيات من أسرار وهدايات.

منهج الدراسة: اتبعت ثلاثة من مناهج البحث العلمي، هي: الاستقرائي ، والتحليلي، والاستنباطي.

نتائج البحث: تبين من خلال البحث أن العذاب العظيم عذاب دنيوي وأخروي، وأنه يشمل الكافرين وعصاة المؤمنين، وأن أسبابه تدور حول أمرين: أمر عقدي نحو افتراء الكذب على الله تعالى، وأمر سلوكي، وهو كل ما بزعزع أمن واستقرار المجتمع الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: العذاب العظيم ؛ الارتداد عن الإيمان؛ افتراء الكذب على الله؛ أمن المجتمع ؛ عذاب أخروي.

Among The Types Of Torment On The Day Of Resurrection: The Great Torment - An Interpretive And Analytical Study.

Sabry Mansour Abdel Aziz Mahmoud Seyam
Department Of Interpretation and Sciences Of The Holy Qur’an, College Of Islamic And Arab Studies For Boys In Cairo - Al-Azhar University.

Email: sabrymahmoud.4@azhar.edu.eg

Abstract:

God sent His Messenger, may God bless him and grant him peace, and revealed it, Glory be to Him, and explained in it the features of the truth, which is control over life and its constitution, and asked for it, and warned against turning away from it, and verses of encouragement and intimidation abounded in it, interpreting the verses, establishing the argument, and urging them to. So.

So the research revolved around a form of intimidation, which is the great torment on the Day of Resurrection, so I studied the verses in which it was mentioned, and made clear its cause in the light of those verses, and revealed what was underneath it. God has established a conclusive argument against them, and I did my best to deduce what those verses included. Secrets and gifts.

Study Approach:I followed three scientific research methods: inductive, analytical, and deductive.

research results:hrough research, it became clear that the great torment is a worldly and otherworldly torment, and that it includes unbelievers and disobedient believers, and that its causes revolve around two matters: a doctrinal matter such as slandering God Almighty, and a behavioral matter, which is everything that undermines the security and stability of Islamic society.

Keywords:Great Torment ; Apostasy From Faith ; Slandering God ; Security Of Society ; Otherworldly Torment.

مقدّمة:

الحمد لله رب العالمين، حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيده، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبد الله ورسوله، صفوة خلقه، وخاتم رسله، والدعي إلى ربه على بصيرة، اللهم صل عليه وعلى آل بيته وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليما كثيرا.

وبعد،،،

فإن القرآن الكريم كتاب الله، أنزله بالحق هدى للناس، وتفصيلا لكل شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣﴾[2]، ففرق فيه بين الحق والباطل، ووضح معالم الحق وحدوده، وإن وضوح الحق وسطوع براهينه لكافٍ في الامتثال إليه، والخضوع له، والسير على مقتضاه، فتستقيم حينئذٍ أحوال الناس، ويصلُح بالُهم.

وإن الناس أمام الحق بعد وضوح معالمه وبيان حدوده فرق وطوائف:

- منهم من يذعن للحق ويمتثل إليه لكونه حقا، وهؤلاء هم صفوة الصفوة من خلق الله.
- منهم من لا ينقاد إلى الحق إلا بالقدر الذي يحقق له نفعا أو يدفع عنه ضرا، عاجلاً كان أو آجلا، ومن ثَمَّ كثرت آيات الترغيب والترهيب في القرآن الكريم، تصريفا للآيات، وإقامة للحجة، وحثا لهم على الامتثال.
- ومنهم من لا يرفع بذلك رأسا، فأعرض عن الحق بعد سطوع أدلته وتصريف آياته وإقامة حججه، وأبت نفوسهم الانصياع إليه، وإن هؤلاء لجديرون أن يؤاخذهم الله بما كسبت أيديهم بعذاب يجانس أعمالهم جزاءً وفاقا.

---

(١) سورة الإسراء، من الآية: ٩ .

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣ .

ولقد تعددت أوصاف العذاب في القرآن الكريم حتى بلغت أكثر من ثلاثين وصفا[١]، كل واحد منها قد جانس ما استوجبه من المعاصي وما لها من أثر سلبي في حياة الفرد والمجتمع.

فأردت -والله من وراء القصد وهو هادي السبيل- أن أتناول بالدراسة التفسيرية التحليلية نوعا من أنواع العذاب يوم القيامة، وهو العذاب العظيم؛ فأكشف عن أسبابه، وأبين أحوال أهله المستحقين بفعالهم الشنعاء له، كما جَلَّتها الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكر هذا النوع من العذاب، وأبرز أهم الأسرار والهدايات التي اشتملت عليها تلك الآيات.

ولما كان العذاب العظيم عذابا دنيويا وعذابا أخرويا، اقتصرت على العذاب الأخروي فحسب خشية الإطالة فيه، وقد سميته: "من أنواع العذاب يوم القيامة: العذاب العظيم، دراسة تفسيرية تحليلية"

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى عدة أهداف رئيسة، أهمها ما يأتي:

- إبراز أسباب العذاب العظيم وبيان أهله المستحقين له يوم القيامة.
- الكشف عن مجانسة هذا النوع من العذاب لأسبابه الموجبة له.
- الوقوف على أبرز أسرار التعبير القرآني وهداياته في الآيات التي ورد فيها ذكر العذاب العظيم.

منهج البحث:

سلكت في إعداد هذا البحث ثلاثة مناهج من مناهج البحث العلمي، أبرزها ما يأتي:

- المنهج الاستقرائي: حيث قمت بجمع الآيات القرآنية التي اشتملت على العذاب العظيم يوم القيامة.
- المنهج التحليلي: حيث قمت بتحليل الآيات القرآنية محل الدراسة.

---

(١) أهم الأوصاف: العظيم، والأليم، والشديد، والغليظ، والكبير، والأكبر، والأشق، والأشد، والمهين، والخزي، والأخزى، والحريق، والمقيم، والخلد، والمستقر، والقريب، والمحذور، والواقع، والسعير، الغرام، والرجز، والواصب، والسموم، والنكر، والضِّعف، والبئيس، والصعَد، والهون، وغير المردود، وغير المأمون.

- المنهج الاستنباطي: حيث قمت بالاستنباط مهتديا بأقوال العلماء والمفسرين من الآيات الكريمة في كل موضع ما يبين أسباب العذاب العظيم وأهله، وأسرار التعبير القرآني فيها.

الدراسات السابقة:

لم أعثر على دراسة متخصصة في التفسير وعلوم القرآن الكريم تناولت هذا الموضوع إلا بحثا بعنوان: "حديث القرآن الكريم عن العذاب المهين، دراسة تفسيرية تحليلية" للدكتور ربيع يوسف الجهمي، وهو بحث منشور بمجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية- جامعة الأزهر، العدد السادس والثلاثين. ولم أتعرض في بحثي إلى ما تعرض إليه، فقد تناول الآيات التي اشتملت على العذاب المهين مبينا أسبابه ومستحقيه.

أما هذا البحث فقد تناولت فيه الآيات التي اشتملت على العذاب العظيم في الآخرة، مبينا أسبابه ومستحقيه ومستنبطا الهدايات التي اشتملت عليها تلك الآيات.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مقدمة وتمهيد ومبحث، على النحو التالي:

المقدمة: اشتملت على أهمية البحث، وأهدافه، ومنهجه، والدراسات السابقة فيه، وخطته.

المبحث الأول: تعريف العذاب العظيم، ومستحقوه.

وفيه أحد عشر مطلبا:

المطلب الأول: تعريف العذاب العظيم.

المطلب الثاني: العذاب العظيم لمن منع عمارة المساجد وسعى في خرابها.

المطلب الثالث: العذاب العظيم لمن تفرق في الدين واختلف في أصوله.

المطلب الرابع: العذاب العظيم لمن سارع في الكفر.

المطلب الخامس: العذاب العظيم لمن قتل المؤمن عمدا بغير حق.

المطلب السادس: العذاب العظيم لمن حارب الله تعالى ورسوله ﷺ.

المطلب السابع: العذاب العظيم لمن حرف ما أنزل الله من الكتاب.
المطلب الثامن: العذاب العظيم للمنافقين.
المطلب التاسع: العذاب العظيم لمن كفر بالله تعالى بعد إيمانه.
المطلب العاشر: العذاب العظيم لمن قذف المحصنات المؤمنات.
المطلب الحادي عشر: العذاب العظيم لمن افترى على الله الكـــــــــذب.

خاتمة: وقد اشتملت على ما يأتي:

- أهم نتائج البحث.
- ثبت بأسماء المصادر والمراجع.
- فهرس الموضوعات.

هذا، فإذا كنت قد وفقت -وهو المأمول- فمن فضل الله -تعالى- عليَّ وتوفيقه، وإن كانت الأخرى -مستعيذا بالله منها- فمن نفسي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء.

والله أسأل أن يكتب لبحثي هذا القبولَ وخير المثوبة في الدنيا والآخرة، كما أسأله -جل وعلا- أن يرحم والدي برحمته التي وسعت كل شيء، وأن يطيل في عمر والدتي وهي في صحة وعافية، وأن يجزي عني مشايخي وتلاميذي ومن له حق عليَّ خير الجزاء.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[١].

* * *

---

(١) سورة هود، من الآية: ٨٨.

المبحث الأول:

تعريف العذاب العظيم، ومستحقوه.

وفيه أحد عشر مطلبا:

المطلب الأول: تعريف العذاب العظيم.

المطلب الثاني: العذاب العظيم لمن منع عمارة المساجد وسعى في خرابها.

المطلب الثالث: العذاب العظيم لمن تفرق في الدين واختلف في أصوله.

المطلب الرابع: العذاب العظيم لمن سارع في الكفر.

المطلب الخامس: العذاب العظيم لمن قتل المؤمن عمدا بغير حق.

المطلب السادس: العذاب العظيم لمن حارب الله تعالى ورسوله ﷺ.

المطلب السابع: العذاب العظيم لمن حرف ما أنزل الله من الكتاب.

المطلب الثامن: العذاب العظيم للمنافقين.

المطلب التاسع: العذاب العظيم لمن كفر بالله تعالى بعد إيمانه.

المطلب العاشر: العذاب العظيم لمن قذف المحصنات المؤمنات.

المطلب الحادي عشر: العذاب العظيم لمن افترى على الله الكذب.

المبحث الأول:

تعريف العذاب العظيم، ومستحقوه.

المطلب الأول: تعريف العذاب العظيم.

"العذاب العظيم" مركب من كلمتين: "العذاب"، و"العظيم"، ولا يتسنى تعريفه باعتباره مركبا حتى يُعرف جزآه.

أ- تعريف العذاب.

العذاب: الشدة والعقوبة، وأصله: الضرب، ومنه قول زهير:

وخلفها سائق يحدو إذا خشيت * منه العذاب تمد الصلب والعنقا(١).

فـ"العذاب" بمعنى الضرب، ثم أطلق على كل عقوبة، ومنه قوله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾(٢)(٣).

وقيل: أصله: الطيب من المأكل والمشرب، وعذُب الرجل: طاب مأكله ومشربه، وأعذبته، وعذبته؛ أي: منعته طيب الحياة.

والمراد به: ما أعده الله من عقاب يوم القيامة للعصاة، سواء أكانوا مؤمنين أو كافرين.

ب- تعريف العظيم.

العظيم من العِظَم، بكسر العين وفتح الظاء، خلاف الصِغر، يُقال: عَظُم الشيءُ؛ أي: كَبُر طولُه وعرضه وعمقه، يقول الراغب: «عَظُمَ الشيءُ، أصله: كبر عظمه، ثم استعير لكل كبير، فأجري مجراه محسوسا كان أو معقولا، عينا كان أو معنى»(٤).

جـ- تعريف العذاب العظيم باعتباره مركبا.

لم يرد في القرآن الكريم وصف يبين كنه هذا العذاب العظيم، بل تُرِك بيان حقيقته؛ ليذهب العقل في تخيله كل مذهب، كما أنه لم يرد فيه؛ أي: في القرآن الكريم معرَّفا، وإنما جاء في جميع المواضع كلها بصيغة النكرة؛ لتذهب العقول في تخيله كل مذهب، وتقدر له من الصور كل تقدير، فيكون

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى ص(٧٤). وفي البيت: "اللحاق" بدل "العذاب".

(٢) سورة النمل، من الآية: ٢١.

(٣) معجم مقاييس اللغة (٤/٢٦٠)، مادة: عذب.

(٤) المفردات في غريب القرآن ص(٥٧٣)، وتاج العروس (٣٣/١١٠)، مادة: عظم.

ذلك أزجر عن اقتراف موجباته من الذنوب والمعاصي، ولم يذكر المفسرون له تعريفا، اعتمادا على وضوح المعنى اللغوي له.

ويمكن تعريفه بأنه: ما أعده الله للعصاة من عذاب وجيع، حسي ومعنوي، في الدنيا أو الآخرة.

فالعذاب العظيم يشمل عذاب البدن فيصف بكونه أليما، وعذابَ النفس، فيوصف بكونه مهينا، فالعذاب العظيم أشد ضررا من العذاب الأليم والمهين والشديد.

ويشمل عذاب الدنيا، سواء أكان على جهة الاستئصال، نحو الذي حذر الأنبياء السابقون منه أممهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥٩﴾[1]، وإنما وُصِف اليوم بكونه عظيما لعظم ما حل بهم فيه العذاب، فهو عذاب عظيم استأصل شأفتهم، وقطع دابرهم.

أو على سبيل الأخذ بالشدة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾[2].

والدليل على كونه يشمل عذاب الدنيا من المحن والبلايا وغيرها ما أخرجه الشيخان عن مسروق ﷺ، قال: دخلت على عائشة وعندها حسان بن ثابت، ينشدها شعرا يشبب بأبيات له، وقال:

حصانٌ رزان ما تُزَنّ بريبة * وتصبح غرثى من لحوم الغوافل.

فقالت له عائشة: «لكنك لست كذلك»، قال مسروق: فقلت لها: لم تأذنين له يدخل عليك؟ وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝١١﴾[3][4]

---

(١) سورة الأعراف، من الآية: ٥٩.

(٢) سورة الشورى، من الآية: ٣٠.

(٣) سورة النور، من الآية: ١١.

(٤) تعارضت الروايات فيمن تولى كبره، فقد أخرج الشيخان من حديث عروة بن الزبير في قصة الإفك أنه عبد الله بن أبي ابن سلول (صحيح البخاري ٣/١٢٣)، كتاب: المغازي، باب: حديث الإفك، حديث رقم: (٤١٤١)، وصحيح مسلم (٤/ ٢١٢٩)، كتاب: التوبة، باب: في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، حديث رقم: (٢٧٧٠).

قال ابن حجر: «وبه تظاهرت الروايات عن عائشة من قصة الإفك المطولة» (فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/٤٥٢).

فقالت: «وأي عذاب أشد من العمى؟ إنه كان ينافح أو يهاجي عن رسول الله ﷺ»[١].

فقد فهمت رضي الله عنها أن العذاب العظيم الذي وعد الله به من تولى كبره ما ابتلي به من فقدان بصره رضي الله عنه.

وأن الله قيده في بعض المواضع بكونه في الآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾[٢]، ولولا أنه يقع في الدنيا لما قيده بكونه في الآخرة.

وأنه سبحانه امتن على المؤمنين بعدم وقوعه بهم في الدنيا والآخرة – مع توفر موجبه؛ لوقوع بعضهم عن غفلة منهم في حادثة الإفك– فقال جل شأنه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾[٣]، فلولا أنه يقع في الدنيا، لما امتن الله بعدم وقوعه.

ويشمل عذاب الآخرة، سواء أكان موجبه معاصي مقترنة بكفر بالله، فيكون خالدا، أم غير مقترنة به، فلا يكون خالدا.

* * *

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه (١٢٦/٣)، كتاب: المغازي، باب: حديث الإفك، حديث رقم: (٤١٤٦)، ومسلم في صحيحه (١٩٣٤/٤)، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب: فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه، حديث رقم: (٢٤٨٨).

(٢) سورة البقرة، من الآية: ١١٤.

(٣) سورة النور، الآية: ١٤.

المطلب الثاني: العذاب العظيم لمن منع عمارة المساجد وسعى في خرابها.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾[١].

السياق العام والخاص للآية الكريمة.

وردت الآية الكريمة في سياق حديث السورة الكريمة -سورة البقرة- عن موقف اليهود من الدعوة الإسلامية، والذي نال منها حيزا كبيرا ونصيبا وافرا، حيث عددت جرائمهم وما اقترفوه من خطايا، في أكثر من مائة وست وثلاثين آية، من أول قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾[٢]، إلى قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾[٣]، فضلا عما اشتملت عليه آيات أخر من السورة نفسها، كما في قوله جل شأنه: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ﴾[٤]، وقوله جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾[٥].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٦.

(٤) سورة البقرة، من الآية: ٢١٣.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٤٦.

فالآية الكريمة تعدد جرائم اليهود التي دأبوا عليها قبل مجيء الإسلام وبعده، حيث سار خَلْفُهم على ما كان عليه سلفهم، هو ما رجحه الرازي[١].

ويجوز أن يراد بها النصارى أو المشركين، فقد سبق الحديث عنهم في قوله جل من قائل: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾[٢]، وكذلك في الآيات اللاحقة، حيث قال جلت حكمته: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾[٣]، فالمراد بـ"ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ" هم المشركون، وبـ"ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم" هم اليهود والنصارى، فإرادتهما بالآية الكريمة لم يَنْبُ به السياق، ويجوز أن يراد الجميع في الآية الكريمة، يقول الشيخ محمد أبو زهرة: «جمَعَهُم (أي: اليهود والنصارى والمشركين) الاعتداءُ على بيوت الله تعالى التي خصصت لعبادته. فقد وقع ذلك من اليهود والنصارى إذ يمنعون غيرهم من المسجد الأقصى حتى دمره المتمردون من المغول والرومان والنصارى، منعوه أيضا بعد أن دخل قسطنطين وحرف النصرانية في مجمع نيقية على ما هو معروف، والمشركون منعوا المسلمين من حج بيت الله الحرامِ وصدوا المسلمين في الحديبية»[٤].

وأيًّا كان من نزلت فيهم الآية، فقد اتفق المفسرون على أن اللفظ عام يشمل هؤلاء وهؤلاء وغيرهم ممن فعل فعلهم[٥].

<u>التفسير والبيان.</u>

---

(١) التفسير الكبير للرازي (١١/٤).

(٢) سورة البقرة، من الآية: ١١٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١١٨.

(٤) زهرة التفاسير لأبي زهرة (٣٧٠/١)، بتصرف.

(٥) الكشاف للزمخشري (١٧٩/١)، وأحكام القرآن لابن العربي (٥٠/١).

دلت على تحريم منع المساجد أن يُذْكَرَ اللهُ فيها ويُعَظَّم، ويُعبَد بما شرعه من تشريعات، وتخريبها، مشتملة على جزاء من يفعل ذلك بأن له عقابين: دنيوي وهو الخزي، وأخروي وهو العذاب العظيم.

وقد تآزرت مفردات الآية وأساليبها مع وصف العذاب بالعظيم لتأكيد استحقاقهم لهذا النوع من العذاب، ويتضح ذلك من خلال ما يأتي:

قوله تعالى: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ"

فقد استهلت الآية الكريمة بالاستفهام المفيد معنى النفي "وَمَنْ أَظْلَمُ"؛ أي: لا أحد أظلم ممن منع ذكر اسم الله في مساجده أو سعى في خرابها.

وهذا التعبير أبلغ في الدلالة على النفي من الخبر؛ أي: مما لو قيل: "لا أحد أظلم"، وذلك للإشارة إلى أن الأمر بلغ من الوضوح ما لا يجهله أحد، أو يستطيع إنكاره، فلا سبيل لهؤلاء المعاندين إلا الاعتراف بجرمهم وسوء صنيعهم.

كذلك فيه من الإيحاء باستنهاض همة المخاطب أن يشارك الجواب، فلا يمر عليه الكلام مرور الغافل عن مضمونه، وحثه على المشاركة في الجواب، وذلك حين يجد نفسه أمام استفهام مطلوب منه الإجابة عليه، فلا يجد بدا إلا الاعتراف بمضمونه، وهو لا أحد أظلم ممن يفعل ذلك؛ فيكون هذا أقوى لتمكين المعنى وإثباته.

ولم يستعمل القرآن الكريم هذا الأسلوب؛ أي: "من أظلم"، إلا في أكبر الخطايا، وأبشع الجرائم لتعلقها بالاعتداء على حقوق الله تعالى[(١)]، فقد أثبت -بدلالة المنطوق- الأظلمية المطلقة لمن اقترف شيئا منها، ونفى المساواة –

---

(١) التعبير وَمَنْ أَظْلَمُ"، و"فَمَنْ أَظْلَمُ" ورد في القرآن الكريم خمس عشرة مرة في المواضع الآتية: [سورة البقرة الآية: ١١٤، و١٤٠، سورة الأنعام الآية: ٢١، ٩٣، ١٤٤، ١٥٧، سورة الأعراف الآية: ١٣٧، سورة يونس الآية: ١٧، سورة هود الآية: ١٨، سورة الكهف الآية: ١٥، ٥٧، سورة العنكبوت الآية: ٦٨، سورة السجدة الآية: ٢٢، سورة الزمر الآية: ٣٢، سورة الصف الآية: ٧]

بدلالة العرف- لمن أتى بشيء سواها، فغيرهم لم يكن أظلم منهم، ولم يساوهم في الظلم، وإن تساووا هم في الأظلمية[١].

فكفى بهذا الأسلوب زجرا عن اقتراف هذا الجرم أن الله سوَّى بينه وبين من افترى عليه كذبا أو كذب بآياته في وصف الأظلمية، ولم يساوه شيء من الذنوب غير اقتراف هذه الآثام التي اشتملت عليها الآيات السابقة، يقول النيسابوري: «استعمال لفظ الظلم في هذا المعنى في غاية الحسن؛ لأن المسجد موضوع لذكر الله تعالى فيه، فالمانع من ذلك واضع للشيء في غير موضعه. وأما أنه لا أظلم منه؛ فلأنه إن كان مشركا فقد جمع مع شركه هذه الخصلة الشنعاء فلا أظلم منه، وإن كان يدعي الإسلام ففعله مناقض لقوله... فهذا الشخص لا يكون في الحقيقة مسلما، وإنما هو منخرط في سلك أهل النفاق، والمنافق كافر أسوأ حالا من الكافر الأصلي بالاتفاق»[٢].

قوله تعالى: "مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ".

فقد أضاف المساجد له تعالى، وهي إضافة تشريف وتعظيم لها، مما يجعل الاعتداء عليها بأي صورة من الصور اعتداءً على حق الله تعالى.

والمساجد، جمع مسجد، وهو: المكان المعدُّ للصلاة والعبادة[٣].

وقيل: كل موضع متعبَّدٍ فيه، فهو مسجد، بدليل قول النبي ﷺ: «وجعلت لي الأرضُ مسجدا وطهورا»[٤][٥].

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي (٧٨/٢)، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود (١/ ١٤٩).

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري (١/ ٣٧١)، بتصرف.

(٣) البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي (٣٠٠/١٠)، والتفسير الوسيط للقرآن الكريم للدكتور محمد سيد طنطاوي (١٤١/١٥).

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه (١٢٦/١)، كتاب: التيمم، باب: بدون ترجمة، حديث رقم: (٣٣٥)، ومسلم في صحيحه (٣٧٠/١)، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، حديث رقم (٥٢١)، عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما.

(٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١٩٦/١)، وإعلام الساجد بأحكام المساجد لبدر الدين الزركشي ص(٢٧).

وقد بنى على هذا القول ابنُ عطية قوله: «وهذه الآية تتناول كل من منع من مسجد إلى يوم القيامة أو خرب مدينة إسلام؛ لأنها مساجد، وإن لم تكن موقوفة، إذ الأرض كلها مسجد لهذه الأمة»[١].

والرأي الأول هو الأرجح؛ لأنه الأشهر والمتبادر عند الإطلاق، ولأنه تعلق به أحكام خاصة لم تتعلق بسائر الأرض.

أما تحريم تخريب مدينة إسلام -كما ذهب إليه ابن عطية- فلا دلالة في الآية عليه، وإنما يؤخذ من دليل آخر.

قوله تعالى: " أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ ".

فقد علق المنع بـ"مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ" مع أن الممنوع هم الناس؛ إظهارا لجرم هذا الفعل وبشاعة عواقبه[٢]، حيث تعلق بحق من حقوق الله، وهو إظهار كمال العبودية له، وهذا المعنى لا يمكن تصويره بما لو قيل: منع الناس مساجد الله؛ لأنه ربما أوهم أن المنع كان بسبب عبث الناس فيه، وعدم قيامهم بحقه؛ فلا يكون حينئذٍ ظلماً.

وفي جمع "المساجد" تصوير لعظم ذنب من يقوم بهذا الفعل الذميم؛ حيث لم يكتف بمسجد واحد وإنما يبذل قصارى جهده ليصل إلى أكبر عدد من المساجد لينشر فيها الفزع والخوف، ويبث فيها الخراب والدمار؛ مما جعله مستحقا لأقسى أنواع العذاب وهو العذاب العظيم في الآخرة فضلا عن الخزي والذل والدمار الذي يلاحقه في الدنيا.

ويمكن أن يحمل أيضا على أن من منع مسجدا واحدا وسعى في خرابه كأنه تعرض للمساجد جميعا؛ مما يدل على عظم الجرم الذي يقوم به من يفعل ذلك، واستحقاقه لهذا الوعيد الشديد.

والمنع لا يكون عرفا إلا لشيء من شأنه أن يتنافس فيه لشرفه[٣].

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (١٩٩/١).

(٢) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم للدكتور عبد العظيم المطعني (٩٨/١).

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني ص(٢٩٧)، وتراث أبي الحسن الحَرَالي المراكشي في التفسير ص(٢٥٣).

ثم علله بقوله تعالى: "أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ" على تقدير محذوف؛ أي: كراهة أن يذكر، فـ" " في تأويل مصدر مفعول له، على تقدير مضاف محذوف، أقيم المضاف إليه مقامه، وهذا الحذف كثير الورود في القرآن الكريم.

ويجوز أن يكون "أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ"، بدل اشتمال من "مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ"، على تقدير: ومن أظلم ممن منع ذكر اسم الله فيها[1]، وفي هذا التوجيه الإعرابي ما يزيد المنع شناعةً؛ لبيان أن المقصودَ منه هو إخماد ذكر الله تعالى.

و"وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ"، السعي: المشي بسرعة[2]، وقد كثر استعماله عرفا في التسبب في الشيء، فهو تعبير شامل لكل من قصد خراب مسجد من مساجد الله.

وقد عطف الجملة على جملة "مَّنَعَ"، وهو من عطف الخاص على العام، فالمنع يكون بالصد عن المسجد، كما قال سبحانه –في كفار مكة حيث منعوا رسول الله وأصحابه عام الحديبية عن دخول المسجد الحرام–: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[3].

---

(١) ومن أوجه الإعراب الجائزة في " " أن يكون مفعولا ثانيا لـ" "؛ لأنه يمكن أن يتعدى إلى مفعولين، كما في قوله تعالى: ﴿   ﴾ [سورة الإسراء، من الآية: ٩٤]
ويجوز أن يكون منصوبا على نزع الخافض، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ [سورة البقرة، من الآية: ٢١]، على تقدير: منع مساجد الله من أن يذكر فيها اسمه. (معاني القرآن للأخفش (١/١٥١)، والتبيان في إعراب القرآن للعكبري (١/١٠٧)، والدر المصون (٢/٧٨).

(٢) الصحاح للجوهري (٦/٢٣٧٧)، والمفردات في غريب القرآن الكريم ص(٤١١)، وتاج العروس (٣٨/٢٧٩)، مادة: سعي.

(٣) سورة الفتح، من الآية: ٢٥.

ويكون بالهدم، كما وقع من النصارى، حيث هدموا المسجد الأقصى، وتركوه خرابا زمنا، حتى بناه المسلمون في عهد عمر بن الخطاب ﷺ، كما سبق ذكره[١].

وفي دلالات هذا العطف ما يبين أن علة المنع والتخريب واحدة، وهو إخماد ذكر الله تعالى، وإطفاء نور العبودية له، وفيه تصعيد للمعنى لتكتمل دائرة الذم والتشنيع على من يتصف بهذه الأوصاف؛ حيث لم يكتفوا بالمنع ويتركوا المساجد قائمة، وإنما يبذلون ما في وسعهم للعمل على خرابها، مبالغة في ذمهم وبيان سوء طويتهم.

قوله تعالى: "أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ".

اختلف المفسرون في المراد به على ثلاثة أقوال:

الأول: أن أولئك الذين اقترفوا من صور الظلم أبشعه، المانعين مساجدَ الله أن يذكر فيها اسمه، الساعين في خرابها لن يدخلوها إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم، ففيه وعد من الله لعباده المؤمنين أنه سيظهرهم عليهم.

الثاني: أنه نهي للمؤمنين أن يمكنوا أولئك من الدخول في المساجد، فلا يدخلوها بحال من الأحوال إلا حال كونهم متنكرين خوفا من المؤمنين.

الثالث: أن هؤلاء ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا المساجد إلا خاشعين لله خاضعين له، بل نكسوا على رؤوسهم، وانقلبوا على أدبارهم، فدخلوها مخربين لها مانعين ذكر الله فيها[٢].

وهذا الوجه هو أرجح الوجوه عندي؛ لأن الآية جاءت للتشنيع عليهم بما فعلوا، وبيان ما ترتب عليها من خزي في الدنيا وعذاب في الآخرة، وحَمْلُ الكلام على ما سيق له أولى.

قوله تعالى: " لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ "

بيان لجزاء هؤلاء، وقد جيء به استئنافا قصدا للاهتمام به، فإن اهتمام المخاطب بالكلام المستأنف أكثر من اهتمامه بالمعطوف.

---

(١) يراجع ص(١١).

(٢) التفسير الكبير (٤/١٠) بتصرف، وينظر: التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور (٦٨١/١).

وقد بينت الآية أن لهم جزاءين:

- دنيوي، وهو الخزي، ومعناه: الذلة والهوان، يقال: خزي الرجلُ، والمقت والإبعاد، يقال: أخزاه الله؛ أي: مقته وأبعده عن رحمته، الذل[١]، وله صور منها: هزيمتهم أمام المؤمنين وتشريدهم، والسبي منهم، وجبنهم، وجزعهم، واضطراب نفوسهم[٢]، وقد دل على عِظَم هذا الخزي مجيؤه نكرة؛ أي: أنه خزي عظيم لا يقادر قدره، ولا يدرك مداه.
- أخروي، وهو العذاب العظيم، ولم تبيِّن الآية الكريمة صور هذا العذاب وألوانه ليذهب العقل في تصوره كل مذهب، ومهما تصور له من ألوانٍ، فلن يدرك كنهه، ولن يحيط بعلمه.

والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا، وقعت جوابا عن سؤال نشأ مما قبلها، كأن سائلا سأل -بعد بيان ما اقترفوه من جرائم-: ما جزاء هؤلاء؟ فقال: "لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ"

وإنما كان هذا جزاءهم، لما اقترفوه من ظلم مؤذنٍ بهلاك المجتمع كله، وذلك لما للمساجد في دور بارز في فيما يلي:

- تحقيق العبودية لله وحده، فقد أعدت للصلاة والذكر، ومن ثَمّ كانت أحب البقاع إلى الله تعالى، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ، قال: «أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها»[٣].
- تزكية النفوس وتطهيرها بما اختصت به من مجالس الذكر والموعظة، فيتربى المسلمون على الفضائل والقيم التي تحفظ للمجتمع استقراره، وتحقق أمنه ونهضته.
- النهضة العلمية والفكرية للأمة، وذلك لما يعقد فيها من دروس العلم النافع، فهي موئل العلماء الربانيين ومثابة الطلاب المجتهدين، فيها

---

(١) الصحاح (٢٣٢٦/٦)، ومعجم مقاييس اللغة (١٧٩/٢)، مادة: خزى.

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني ص(٢٩٨).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٤٦٤/١)، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: أحب البلاد إلى الله مساجدها، حديث رقم (٦٧١).

تتلاقح الأفكار، وتنقدح الآراء، فتستنير العقول وتتطور العلوم وتنهض الأمة.

- تقوية أواصر الألفة والمودة بين المؤمنين، فهي مركز التقائهم، فتترابط قلوبهم، وتتوحد كلمتهم، وتقوى روابط الأخوة حتى يصير المجتمع كله كالجسد الواحد.

فمنع المسلمين من أن يذكروا الله فيها والسعي في تخريبها هو إخماد لنور العبودية لله تعالى، وعمل على نشر الفواحش وانتشار المفاسد، وشيوع الجهل، وتشتيت أمر الأمة وتفريق كلمتها، وذلك كله مؤذن بهلاك المجتمع، فكان ظلمهم عظيما، استحق خزيا وعذابا عظيما في الدنيا والآخرة.

وهكذا كان كل ما في الآية الكريمة من أولها إلى أخرها مرتبطا أشد الارتباط، كارتباط السبب بالنتيجة، ففعلهم لهذه القبائح أدى بهم إلى استحقاق هذا النوع من العقاب؛ مما يبين التناسب القوي بين فعالهم الذميمة واستحقاقهم للخزي في الدنيا، والعذاب العظيم دون غيره من أنواع العذاب في الآخرة.

* * *

المطلب الثالث: العذاب العظيم لمن تفرق في الدين واختلف في أصوله.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾[١].

السياق العام والخاص للآية الكريمة.

وردت الآية الكريمة في سياق سورة آل عمران، وهي متسقة مع قضاياها وموضوعاتها، فقد عالجت السورة قضيتين رئيستين: مجادلة أهل الكتاب، وفضحهم في انحرافهم في عقيدتهم، وغزوة أحد، وما تخللها من أحداث ودروس مستفادة تعالج الخللَ الذي ألم بواقع الأمة الإسلامية يومئذٍ، وبمعالجة هاتين القضيتين تكتمل صورة الإسلام بجوانبها العقدية الصحيحة والسلوكية المستقيمة.

فتأتي الآية الكريمة لتؤدي حلقة من حلقاتها المترابطة، فبعد أن نددت الآيات السابقة بأهل الكتاب بسبب كفرَهم بآيات الله، وصدهم الناس عن دين الله، وحذَّرت المؤمنين أن يُصغُوا إليهم، أو ينصاعوا لهم، فيفرقوا جمعهم، بعد ذلك أمر الله المؤمنين بعدة أمور تهدف إلى جمعهم على الحق، وتوحيد كلمتهم، وهي: تقوى الله، والاعتصام بحبله، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في ثلاث آيات متتالية بدءا من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ....﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[٢]، إذ ذاك هو سبيل وحدتهم، وسبب فلاحهم، فهي وحدة منبثقة عن تقوى الله، والاعتصام بحبله، والتمسك بمنهجه[٣].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.

(٢) سورة آل عمران، من الآيات: ١٠٢، ١٠٤.

(٣) جاءت التوجيهات الربانية بأحكم ما يجمع أمر الأمة الإسلامية حيث بدأ بتربية نفوسهم وتهيئتها نفسا نفساً، حيث أمرهم بالتقوى حق التقاة، ثم ثنى بتربية المجتمع كله بما أمرهم به من الاعتصام بحبله المتين، فلا يمكن للمجتمع أن يعتصم بحبل الله إلا إذا تحقق كل فرد من أفراده بتقوى الله، ثم أمر بما يحفظ عليهم وحدتهم، بحيث لا يشذ عنها أحد، وذلك بأن يكون منهم من يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر.

ثم عقب ذلك بالآية الكريمة المشتملة على النهي الصريح عن التفرق والاختلاف بأبلغ الأساليب، وألطف العبارات، مشيرا إلى آثاره المترتبة عليه في الدنيا وجزائه في الآخرة.

التفسير والبيان.

تآلفت عبارات الآية الكريمة بما يبيِّن آثار الاختلاف والتفرق على واقع الأمة الإسلامية محذرا إياها أن تقع فيما وقع فيه من سبقها، فتهلك كما هلكوا، وعدالةَ الجزاء الرباني عليه؛ أي: على التفرق والاختلاف في الآخرة، ، ويتضح ذلك من خلال ما يلي:

قوله تعالى: "وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ".

– الخطاب في الآية الكريمة للمؤمنين، وهو نهي لهم أن يقعوا فيما وقعت فيه الأمم السابقة من اليهود والنصارى من التفرق والاختلاف في أصول الدين.

– أن الآية معطوفة على ما قبلها من قوله تعالى: "وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ..."، وهو نهي عن التفرق والاختلاف بعد الأمر بما يؤدي إلى الوحدة والائتلاف من الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

– أن أسلوب النهي في الآية الكريمة جاء بأبلغ عبارة وأزجرها عن الاختلاف، ويتضح ذلك من وجوه، أبرزها أمران:

الأول: أن قوله: "وَلَا تَكُونُوا۟..." هو نهي عن الكينونة ذاتها؛ أي: لا ينبغي لكم ولا يستقيم في أي حال من الأحوال أن تختلفوا وتتفرقوا بأي صورة من صور التفرق؛ لأن التفرق لا يثمر إلا ما لا تحمد عقباه.

وذلك أبلغ مما لو قيل: "ولا تفرقوا وتختلفوا كما تفرق الذين من قبلكم"، لأنه يوهم أن الاختلاف المنهي عنه هو ما كان عليه الذين من قبلنا، لا غيره.

الثاني: أنه نهي مشفوع بعلته، فقد اقترن بالإشارة إلى سنة الله الجارية؛ أي: لا يكن منكم اختلاف كما كان ممن قبلكم، فيجري عليكم ما قد جرى

عليهم، يقول الشيخ أبو زهرة: «وذلك نهى مع الدليل الموجب للنهي، والغاية التي ترتبت على النهي عنه»[١].

وقد بيَّن الله ما قد وقع عليهم بسبب اختلافهم في آيات كثيرة، فقد وقعوا في شقاق بينهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦﴾[٢].

وانتشرت بينهم العداوة والبغضاء، كما قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾[٣].

وشاع بينهم سفك الدماء، كما قال جل شأنه: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ٢٥٣﴾[٤].

وناهيك بيانا عما في هذا الاقتتال من ترويع للآمنين وسفك دمائهم وإحالة دون تحقيق عمارة الأرض التي هم أحد مقاصد القرآن الكريم.

وقد أجمل النبي ﷺ وصفهم بأنهم هلكوا، فقال ﷺ: «لا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»[٥].

ومعنى الآية: إياكم أن تقعوا فيما وقعت فيه الأمم السابقة من الاختلاف، فيحل بكم ما حل بهم من وقوع الشقاق والعداوة والبغضاء بينكم وشيوع القتل فيكم، وانتشار الفوضى والتخريب.

و" كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ ".

المراد بـ"الذين تفرقوا ..." هم اليهود والنصارى؛ وهو رأي جمهور المفسرين، وقيل: هم المبتدعة من هذه الأمة[١]، والأول هو الصحيح، فقد

---

(١) زهرة التفاسير (١٣٤٨/٣).

(٢) سورة البقرة، من الآية: ١٧٦.

(٣) سورة المائدة، من الآية: ١٤.

(٤) سورة البقرة، من الآية: ٢٥٣.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٩٩/٢)، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: بدون ترجمة، حديث رقم: (٣٤٧٦)، ابن مسعود ﷺ.

ذكر الحق –سبحانه– ما صوَّر مآل الاختلاف في أبشع صوره باعتبار أحوال المختلفين؛ تنفيرا عنه[٢].

والتفرَّق، يقال في تشتيت الشّمل والكلمة بسبب العداوة والشحناء، وأصله من الفرق، وهو الفصل بين شيئين، سواء كان بما يدركه البصر، أو بما تدركه البصيرة، وهو مطاوع "فرق"، يقال: فرَّق بين الرجلين، وبين الرأيين، فتَفَرَّقا تفرُّقا، وافترقا افتراقا[٣]، والأول؛ أي: تفرق تفرقا، لغة القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾[٤].

والاختلاف، من الخلف، وهو أن يجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه[٥]، فكأن كل واحد من المختلفين يريد أن يهدم رأي الآخر ليقيم رأيه مقامه، وقال الراغب: هو: «أن يأخذ كلّ واحد طريقا غير طريق الآخر في حاله أو قوله»[٦].

وفي الاصطلاح، عرفه الحرالي بأنه: تقابل بين رأيين فيما ينبغي انفراد الرأي فيه[٧].

والمعروف أن الاختلاف يؤدي إلى النزاع والشقاق، ومن ثَمَّ التدابر والتفرق، يقول ابن عاشور: «وقُدِّم الافتراق على الاختلاف للإيذان بأن الاختلاف علة التفرق»[٨]، فالتفرق هو نتيجة للاختلاف، فكان مقتضى الكلام تقديم "ٱخْتَلَفُوا۟" على "تَفَرَّقُوا۟"؛ تقديما للسبب على المسبب، وللمقدمة على النتيجة.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٦٦/٤)، و تفسير المنار (٣/ ٧).

(٢) التحرير والتنوير (٤٢/٤)، والتفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي (٢٠٥/٢).

(٣) المفردات في غريب القرآن ص(٦٣٣)، وتاج العروس (٢٧٩/٢٦)، مادة: فرق.

(٤) سورة النساء، من الآية: ١٣٠.

(٥) معجم مقاييس اللغة (٢١٠/٢)، مادة: خلف.

(٦) المفردات في غريب القرآن ص(٢٩٤)، مادة: خلف.

(٧) نظم الدرر للبقاعي (١١٧/٢).

(٨) التحرير والتنوير (٤٢/٤)، وينظر: زهرة التفاسير (١٣٤٨/٣).

وإنما قُدِّم المسبب وهو التفرق؛ لأنه الغرض الأصلي الذي سيق لأجله الكلام، ثم أُتبِع ببيان سببه، وهو الاختلاف، وجاء العطف بالواو إشارة إلى كلا المعطوفين جدير بالنهي عنه والتحذير منه.

والاختلاف المترتب عليه آثاره من التكفير والشقاق والتفرق والقتل إنما هو الاختلاف في الأمور القطعية من الأصول أو الفروع، ومفهوم الآية: أن الاختلاف الذي لا يؤدي إلى تفرق لا حرج فيه، كما هو الواقع من اختلاف الصحابة في الظنيات، والأئمة المتبوعون من بعدهم، وما أثمر اختلافهم إلا ألفة بين أمتنا[١].

و"مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ"،

بيان لحقيقة هذا الاختلاف والتفرق، وذلك أن اختلافهم لم يكن ناشئا عن التباس في فهم لما أُنزل إليهم، أو عن اجتهاد خاطئ فيما لم يرد لهم فيه بيان من النصوص الشرعية، بل كان اتباعا للهوى، أو تعصبا لرأي، أو تقليدا من غير بيّنة، كما صوره قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ﴾[٢].

و"من" لابتداء الغاية، ومفادها أن تفرقهم الناشئ عن اختلافهم لم يكن إلا بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب، ووضوح البراهين والحجج الموجبة للاتفاق والوحدة، فلا عذر لهم في اختلافهم، ولا مستند لهم إلا اتباعهم الهوى، أو تقليدهم وتعصبهم من غير بصيرة.

وجمع "ٱلۡبَيِّنَٰتُ" باعتبار تعددها وتصريفها بما لم يُبق شبهةً في أن اختلافهم مرده العناد واتباع الهوى، فاستحقوا بذلك أشد أنواع العذاب، وهو العذاب العظيم.

قوله تعالى: "وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ"

الواو فيها للاستئناف[٣]، والأولى أن تكون عاطفة، والجملة بعدها معطوفة على صلة الموصول، لا محل لها من الإعراب، وخولف بين

---

(١) التحرير والتنوير (٤/٤٢)، والتفسير الوسيط للقرآن الكريم (٢/٢٠٥).

(٢) سورة البقرة، من الآية: ٢١٣.

(٣) الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه لمحمود صافي (٢/٢٦٨).

المتعاطفَين فالمعطوف عليه جملة فعلية، والمعطوف جملة اسمية لاختلاف زمانهما، فالتفرق والاختلاف دنيوي، والعذاب العظيم أخروي، ولإفادة التجدد في الأولى، والثبات في الثانية كما هو المعروف في دلالة الجمل الفعلية والاسمية. والوجه الجامع بين الجمل المتعاطفة هو التسبب، فالاختلاف سبب في التفرق، والتفرق وما ترتب عليه سبب في العذاب.

واسم الإشارة "أولئك" يعود إلى الذين تفرقوا واختلفوا، وأُشيرَ به للتنبيه على بُعدهم عن طريق الصواب، وإغراقهم فيما وقعوا فيه من الاختلاف فيما لا ينبغي الاختلاف فيه.

وهذا العذاب، إنما هو عذاب أخروي، لتعلق الظرف "يَوۡمَ" بعدها في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾(١) به، والمعنى: لهم عذاب عظيم في يوم تبيض وجوه وتسود وجوه.

وإنما وُصِف العذابُ بكونها عظيما؛ لعظم جرمهم وما اقترفوه من الشحناء والبغضاء، ومن التكفير واستحلال الدماء، وإثارة الفوضى في المجتمع وقض مضجعه، وتلك الآفة الكبرى في كسر شوكة الأمة، والعقبة الكؤود في سبيل تقدمها ونهضتها.

* * *

---

(١) سورة آل عمران، من الآية: ١٠٦.

المطلب الرابع: العذاب العظيم لمن سارع في الكفر.

قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْءَاخِرَةِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٧٦ ﴾[1].

السياق العام والخاص للآية الكريمة.

وردت الآية الكريمة في سورة آل عمران، في حلقة من حلقاتها المترابطة بموضوعها العام، وهدفها الرئيس، فقد وردت الآية في أعقاب حديث السورة عن غزوة أحد، الذي استغرق من السورة قدرا كبيرا، امتد من أول قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١﴾[2]، إلى قوله سبحانه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٧٩﴾[3]، وما كان في هذه الغزوة من تآمر المشركين واليهود، والمنافقين على رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين وكيدهم لهم للقضاء عليهم معلوم ومشهور، مع أن النبيﷺ ما بُعِث إلا رحمة بهم، وما كانت دعوتهم إلا نجاة لهم، فآلم ما كان منهم نفسهﷺ ، حتى كاد يهلك غما على عدم إيمانهم، كما قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ٣﴾[4].

فنزلت هذه الآية الكريمة تسلية له ﷺ وتسرية عما يجده في نفسه، وبيان أن كيدهم ومكرهم لا يضره ومن معه، وأن وبال مسارعتهم في الكفر من فقدان النعيم الأبدي وما أُعِد من عذاب عظيم راجع عليهم.

التفسير والبيان.

بيَّنت الآية الكريمة أن العذاب العظيم الذي أعده الله لهؤلاء الذين يسارعون في الكفر إنما هو، لعظم ما اقترفوه وشناعة ما جنوه على أنفسهم وعلى الأمة الإسلامية، ويتضح ذلك من خلال ما يلي:

قوله تعالى: "وَلَا يَحْزُنكَ ..."

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢١.

(٣) سورة آل عمران، من الآية: ١٧٩.

(٤) سورة الشعراء، الآية: ٣.

الخطابُ فيه للنبيِّ ﷺ، وفي تخصيص الخطاب به تشريفٌ له، ولأنه المعنيُّ بتدبير أمور الدين، وسائرُ الأمةِ له تبَعٌ[١]، والمراد بالنهي تسليتُه ﷺ عما يجده في نفسه من ألمٍ بسبب كيدهم ومكرهم، وإدخالُ الطمأنينة على قلبه بأن كيدهم لن يضره ومن معه من المؤمنين، وبشارتُه بأن العاقبة له ولأتباعه، والمعنى: لا تبالِ بما بدر منهم، ولا تهتم لهم[٢].

قوله تعالى: "ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ..."

المسارعة من السُّرعة، وهي ضد البطء، ويقال: أسرع إلى كذا؛ أي: أسرع المضي إليه[٣]، يقول الراغب: «وحقيقة المسارعة في ذلك أن يترقى الإنسان فيما يتحرّاه منزلة فمنزلة، خيرا كان أو شرا، فيتعوَّده فيتقوَّى به على المنزلة الثانية، لأن الشر حاصلٌ بعضه عن بعض، وحاملٌ بعضه بعضاً، وكذا الخير»[٤].

و"سارع" بمعنى "أسرع"، وقد قرأ الحر بن عبد الرحمن "يُسرِعون"[٥]، لكن بناءه على معنى المفاعلة أبلغ؛ فإن من يسارع غيره أكثر حرصا واجتهادا لنيل ما أسرع إليه، وأشد فرحا به عند إدراكه ممن يُسرع هو وحده.

والأصل أن يتعدى "سارع" بـــ"إلى"، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[٦].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٢/ ١١٥).

(٢) تأويلات أهل السنة لأبي منصور الماتريدي (٥٣٦/٢)، ومحاسن التأويل (٤٦٢/٢)، والتفسير الوسيط (٣٤٦/٢).

(٣) المفردات في غريب القرآن ص(٤٠٧)، ولسان العرب (١٥١/٨)، وتاج العروس (١٨٣/٢١)، مادة: سرع.

(٤) تفسير الراغب الأصفهاني (٩٩٦/٣).

(٥) قراءة شاذة: ذكرها ابن جني في المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات (١٧٧/١)، وابن عطية في تفسيره (٥٤٤/١).

(٦) سورة آل عمران، من الآية: ١٣٣.

فيحتمل أن تكون تعديته بــ"في" لتضمين المسارعة معنى الوقوع؛ أي: سارعوا إلى الكفر، ووقعوا فيه سريعا لشدة حرصهم ورغبتهم فيه، فأحاطهم من كل جانب إطاحة الظرف بالمظروف[١].

أو لتضمينها معنى "الاستقرار"؛ فكأنهم أسرعوا إلى الكفر، فأدركوه، واستقروا فيه رغبةً فيه فكأنه غايتهم التي ظفروا بها.

أو لتضمينها معنى "توغل"؛ أي: سارعوا إلى الكفر، وتوغلوا فيه وتقلبوا في مظاهره، فهم ينتقلون فيه من درجة إلى أخرى، فينتقلون من الجحود إلى الإضلال، ومن الإضلال إلى المكر، ومن المكر إلى القتال.

والمراد بمسارعتهم في الكفر: مبادرتهم إليه بأقوالهم وأفعالهم[٢]، من جحودهم، ومظاهرة بعضهم بعضا بالباطل، وتآمرهم على المسلمين، وقتالهم لهم غير ذلك مما يوحي به سياق الآيات.

وقد اختلف المفسرون في المراد بــ"ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ" على أقوال:

الأول: أنهم مشركو قريش؛ وهو المروي عن الحسن[٣]، والمراد بهم المقاتلين منهم الذين جاءوا بعددهم وعدتهم لمحاربة الرسول ﷺ ومن معه، والقضاء عليهم يوم أُحد.

الثاني: أنهم المنافقون؛ وهو المروي عن مجاهد[٤]

الثالث: أنهم رؤساء اليهود؛ وهو المروي عن الكلبي[٥].

والأولى حمل الآية على العموم[١]؛ إذ لا يخفى تآمر كل منهما مع مشركي قريش، فقد رجع عبد الله بن أبي ابن سلول في ثلث الجيش قبل بدء

(١) الكشاف (٤٤٣/١)، وإرشاد العقل السليم (١١٥/٢)، وزهرة التفاسير (١٥١٥/٣)، وتفسير المنار (٢٠٢/٤).

(٢) المحرر الوجيز (٥٤٤/١).

(٣) الأثر: أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم (٨٢٢/٣).

(٤) الأثر: أخرجه الطبري في جامع البيان (٤١٨/٧)، وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم (٨٢١/٣).

(٥) الأثر: رواه أبو الليث السمرقندي في بحر العلوم (١/ ٣١٧)، وينظر: الكشاف (٤٤٣/١)، والتفسير الكبير (٤٣٦/٩).

المعركة، لتوهين عزيمة المسلمين، وتثبيطهم لهم، وتيئيسهم من النصر، فقد نقض اليهود عهدهم مع رسول الله ﷺ وخذلوه، فلم يرسلوا مقاتلتهم معه، أو يعيروه أسلحتهم.

والآية تشمل هؤلاء من سار على دربهم مما بَدَرَت منهم شدة العناد والمسارعة في نصرة الكفر وأهله.

قوله تعالى: "إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ"

تسجيل على الكافرين بجريمة أخرى فوق جريمتهم الأولى، وهي أنهم أرادوا إيقاع الضرر بالنبي ﷺ والمؤمنين وهو القضاء عليهم؛ إذ جاءوا بقضهم وقضيضهم.

والضر: سوءُ الحال في النفس أو البدن أو حالة ظاهرة، يقال: ضره، يضره، ضرا؛ أي: جلب إليه سواءً، وهو يقابل النفع[٢].

والجملة مستأنفة استئنافا بيانا، وقعت تعليلا لنهيه ﷺ عن الحزن على مسارعتهم في الكفر، فهي جواب عن سؤال نشأ عن الجملة السابقة، تقديره: لماذا لا أحزن؟ والجواب: إنهم لن يضروا الله شيئا. والمراد نفي أنهم بمسارعتهم في الكفر يعطلون ما وعد الله به نبيه ﷺ من النصر وإظهار دينه[٣].

وقد اختلف المفسرون في المراد من قوله تعالى: "لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ" على قولين:

الأول: أن المراد به ظاهره؛ أي: أنه لن يعود على الله من مسارعتهم في الكفر أدنى ضرر، كما أنه لن يعود عليه تعالى من طاعة مَنْ أطاعه أدنى نفع، فما يفعل العباد من معاصٍ أو طاعات لن تعود ثماره من الضر والنفع إلا على أنفسهم، لا على الله، واستدلوا بحديث النبي ﷺ، فيما روى عن الله

---

(١) البحر المحيط في التفسير (٣/٤٤٢).

(٢) معجم مقاييس اللغة (٣/٣٦٠)، والمفردات في غريب القرآن ص(٥٠٣)، ولسان العرب (٤/٤٨٢)، مادة: ضرر.

(٣) التحرير والتنوير (٤/١٧٣).

تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»[(١)].

الثاني: أن الكلام مبني على الحذف، وتقدير المحذوف: إنهم لن يضروا أولياء الله شيئا، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، وهذا النوع من الحذف كثير في القرآن الكريم[(٢)].

وقد استأنسوا بقول رسول الله ﷺ: «إن الله قال: من عادى لي وليا، فقد آذنته بالحرب»[(٣)].

وفي هذا الحذف تشريف للنبي ﷺ وللمؤمنين بأن مضارتهم مضارة لله تعالى، وفيه من البشارة أن الله ناصرٌ دينه، وممكنٌ أولياءه، ومخزٍ أعداءه، يقول الشعراوي: «إن الرسول ﷺ وصحابته المؤمنين ليسوا طرفاً في المسألة، فعداء الذين يسارعون في الكفر هو عداء لله...كأن المعركة ليست مع المؤمنين، ولكنها معركة الكافرين مع الله...فلو كانت معركة الكفر مع المؤمنين بالله فقط لقال الله:...إنهم لن يضروكم شيئا»[(٤)].

والوجهان صحيحان، يحتملهما البيان القرآني.

وقد أُكِّدت الجملة بـــ"إنَّ" واسمية الجملة مع أن المخاطَب موقن بأنهم لن يضروه شيئا؛ تنزيلا له منزلة المنكر، لما بدر منه ﷺ من حزن شديد عليهم، كاد تهلك نفسه بسببه، كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾[(٥)]، وهو من شدة رحمته ﷺ بأمته ورأفته بهم.

قوله تعالى: "يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظًّا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ".

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٩٤/٤)، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، حديث رقم (٢٥٧٧)، عن أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) جامع البيان (٤١٨/٧)، وتأويلات أهل السنة (٥٣٧/٢)، وبحر العلوم (٢٦٧/١)، وزهرة التفاسير (١٥١٥/٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (١٩٢/٤)، كتاب: الرقاق، باب: التواضع، حديث رقم (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) تفسير الشعراوي (١٨٨٣/٣)، بتصرف.

(٥) سورة الكهف، الآية: ٦.

بعد أن بشر الله نبيه ﷺ والذين معه أنه لم ينالهم من كيد الكافرين ضرر، بيَّنَ أن هذا الضرر عائدٌ على الكافرين، وذلك بأن الله لم يرد ألا يجعل لهم نصيبا من رحمته في الآخرة، فالجملة استئناف بياني لجملة محذوفة اقتضاها السياق؛ فكأن سائلا قال: ما بالهم يسارعون في الكفر مع أن مضرته تعود عليهم؟ فقال: "يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ". يقول الطيبي: «أصل الكلام: لن يضروا الله شيئاً، بل أنفسهم يضرون، فوضع المفسِّر وهو قوله: "يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ" موضع المفسَّر المحذوف»[1].

ويجوز أن تكون تعليلا ثانيا للنهي عن الحزن بعد أن علله بقوله تعالى: "إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ"، وتكميلا لتسليته ﷺ[2]، والمعنى: لا تحزن على مسارعتهم في الكفر فإن الله أراد ألا يجعل لهم نصيبا في الآخرة، فلا بد حينئذٍ أن يسلكوا السبل التي تستوجب حرمانهم الرحمة ونيلَهم العذاب، فلم يكن كفرهم إذاً مراغمة لله فتحزن عليهم.

وأيا ما كان موقع الجملة، فهي تسجيل عليهم بتماديهم في مظاهر الكفر وبلوغهم فيه حدا حال بينهم وبين أن يريد الله هدايتهم، فيجعل لهم نصيبا من رحمته في الآخرة، واستبدله بعذاب عظيم، يقول إسماعيل حقي: «وفى ذكر الإرادة إشعار بأن كفرهم بلغ النهاية حتى أراد أرحم الراحمين أن لا يكون لهم حظ (في الآخرة) من رحمته...ولَهم مع ذلك الحرمان الكلى بدل الثواب عذابٌ عظيمٌ لا يقادر قدره»[3].

فهم أضاعوا على أنفسهم -بمسارعتهم في الكفر- نصيبهم من النعيم السرمدي في الآخرة الذي كتبه الله على كل عبد واستبدلوه بعذاب عظيم جانس جرائمهم العظيمة، فقد روى أنس ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن العبد إذا وُضِع في قبره وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف (٣٥٥/٤).

(٢) إرشاد العقل السليم (١١٦/٢)، وتفسير المنار (٢٠٣/٤)، وزهرة التفاسير (١٥١٦/٣)، التفسير الوسيط للقرآن الكريم (٣٤٧/٢).

(٣) روح البيان لإسماعيل حقي (١٢٩/٢).

ملكان فيقعدانه، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل لمحمد ﷺ، فأما المؤمن، فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة، فيراهما جميعا»[١].

ومن ذهب من المفسرين إلى أن العذاب العظيم في الآية يشمل عذاب الدنيا والآخرة[٢]، لا يؤيده ظاهر الآية، وإنما هو خاص بعذاب الآخرة، ولا شك أن لهم عذابا في الدنيا، لكن يستدل عليه بآيات أخر.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه (٤٢٢/١)، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر، حديث رقم: (١٣٧٤)، ومسلم في صحيحه (٢٢٠٠/٤)، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، حديث رقم: (٢٨٧٠)، واللفظ للبخاري.

(٢) تفسير المنار (٢٠٣/٤).

المطلب الخامس: العذاب العظيم لمن قتل المؤمن عمدا بغير حق.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾[١].

أولاً: السياق العام للآية الكريمة.

الآية الكريمة وردت في سورة النساء التي عُنيت ببناء العلاقات الإنسانية بين الناس بعد أن صار للمسلمين دولة ومنعة في المدينة المنورة، لتقوي روابط المجتمع الإنساني بدءا بالأسرة، وانتهاء بعلاقة المسلمين بغيرهم، فهي -كما يقول أبو زهرة-: «سورة الإنسانية، ففيها عَيَّن القرآن الكريم العلاقات الإنسانية التي تربط الناس بعضهم ببعض، وما ينبغي أن تنهجه المجتمعات الفاضلة في جعل العلاقة الإنسانية الأصيلة تسير في مجراها الطبيعي الذي رسمه رب العالمين بمقتضى الفطرة»[٢].

فتأتي الآية الكريمة لتشرع حكما من الأحكام التي تحفظ على الفرد حقه، وعلى المجتمع أمنه واستقراره، ووحدته، وهو تحريم سفك الدماء بغير حق، -بعد بيان أحكام القتل الخطأ- ومبيِّنة ما ترتب عليه من العقاب الإلهي.

ثانياً: سبب نزول الآية.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن مِقْيس بن صُبَابة وجد أخاه هشام بن صبابة مقتولا في بني النجار، وكان مسلما، فأتى رسول الله ﷺ، فذكر ذلك له، فأرسل إليهم رسول الله ﷺ رسولا من بني فهر، وقال له: «ائت بني النجار فأقرئهم مني السلام، وقل لهم: إن رسول الله ﷺ يأمركم إن علمتم قاتل هشام أن تدفعوه إلى أخيه فيقتص منه، وإن لم تعلموا له قاتلا أن تدفعوا إليه ديته».

فأبلغهم الفهري ذلك عن النبي ﷺ فقالوا: سمعا وطاعة لله ولرسول الله، والله ما نعلم له قاتلا، ولكنا نؤدي إليه ديته، قال: فأعطوه مائة من الإبل، ثم انصرفا راجعين نحو المدينة، وبينهما وبين المدينة قريب، فأتى الشيطان مقيس بن صبابة، فوسوس إليه فقال: أي شيء صنعت؟ تقبل دية أخيك

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٣.

(٢) زهرة التفاسير (٣/١٥٦٣).

فيكون عليك سبة؟ اقتل الذي معك، فيكون نفس مكان نفس، وفضل بالدية، قال: فرمى إلى الفهري بصخرة، فشدخ رأسه، ثم ركب بعيرا منها وساق بقيتها راجعا إلى مكة كافرا ... فنزلت الآية[١]، ونقل الرازي عن الواحدي إجماع المفسرين على أن الآية نزلت في كافر قتل مؤمنا[٢].

التفسير والبيان.

لقد حرم الله قتل النفس بغير حق، ورتب عليه من العقاب أشده وأزجره، فلا تجد عقابا أشد ولا أنكى من قتل النفس بغير حق، ولا أزجر على اقترافه منه، يقول القسطلاني: «وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، اشتمل على أنواع من العذاب لم تجتمع في غير هذا الذنب العظيم المقرون بالشرك في غير ما آية»[٣].

فقد جمع له مع العذاب العظيم عذاب جهنم، والخلود فيها، وغضبَ اللهِ عليه، ولعنتَه له، فلم يعدل به من الجزاء ذنبا آخر، وهو جزاء عادل، يناسب فظاعة هذا الجرم وما يترتب عليه من آثار تهلك المجتمع وتلقي به في هوة من الفوضى وإسالة الدماء، ويتضح ذلك من خلال:

قوله تعالى: "وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ..."

الآية الكريمة بيان لجزاء القتل العمد العدوان عند الله تعالى وقد بيَّن الله حكمه، الدنيويَّ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ

---

(١) ضعيف جدا: أخرجه البيهقيُّ في شعب الإيمان (٤٦٨/١)، حشر الناس بعدما يبعثون من قبورهم- فصل في بيان كبائر الذنوب وصغائرها وفواحشها، حديث رقم (٢٩٢)، من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والكلبي ضعيف جدا، قال ابن حجر: «متهم بالكذب، ورمي بالرفض» (تقريب التهذيب ص(٤٧٩). وأخرجه الواحدي في أسباب نزول القرآن ص(١٧٠).

(٢) التفسير الكبير (١٨٣/١٠).

(٣) إرشاد الساري للقسطلاني (٩٠/٩).

فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝١٧٩﴾[١].

والقتل: فعل يحصل به زهوق الروح[٢].

والتعمُّد في اللغة من العمد، وهو: قصد الشيء وإرادته، فالتاء والميم فيه زائدتان لإفادة معنى الحرص والإصرار[٣].

وفي الاصطلاح: عرفه الفقهاء بأنه: ما قصد به إتلاف النفس[٤].

ولما كان القصد غيبا لا يعلمه إلا الله، جعلوا له أمارات تدل عليه، ليرتبوا عليه أحكامه الدنيوية من القصاص أو الدية المغلظة أو العفو، وذلك بأن يكون بما من شأنه أن يقتل في العادة، نحو الضرب بآلة حادة شأنها أن تقتل قطعا أو غالبا، أو كان بغيرها لكنه كان في مقْتل، أو أن يلقيه في النار، أو يطبق عليه بيتا ويمنعه الغذاء حتى يموت جوعا... إلخ.

أما جزاؤه عند الله فمترتب على القصد والحرص الذي لا شبهة له فيه، والله خبير بمكنون النفوس، وذلك بأن يقتله عالما بإيمانه، قاصدا قتله، وحريصا عليه، ولا عذر له فيه، من لبس أو إكراه، ولا حق له فيه من نحو القصاص أو إقامة حدٍّ، فإنه يستحق الجزاء الذي اشتملت عليه الآية الكريمة.

و"وَمَن" في الآية اسم موصول، متضمن معنى الشرط، وهو من صيغ العموم، فيشمل كل قاتل عمدا، سواء أكان مؤمنا أم كافرا، وفي الاتيان به سر بلاغي، أشار إليه البقاعي بقوله: «وترك الكلام محتملاً زيادةُ تنفيرٍ من قتل المسلم»[٥].

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١٧٨، ١٧٩.

(٢) التعريفات للجرجاني ص(١٧٢).

(٣) الصحاح ص(٥١١/٢)، ومعجم مقاييس اللغة (١٣٧/٤)، والمفردات في غريب القرآن ص(٥٨٥)، مادة: عمد.

(٤) شرح حدود ابن عرفة لمحمد بن قاسم الأنصاري ص(٤٧٣).

(٥) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣٦٤/٥).

وقد جاء فعل الشرط "يَقۡتُلۡ" مضارعا؛ لأن الغالب في التعبير به أن يكون فيما يتكرر[١]، فالتعبير به لتنزيل إصرار القاتل عمدا على القتل منزلة تكرار وقوع القتل منه كلما سنحت له الفرصة، يقول البقاعي: «ولعله أشار بصيغة المضارع إلى دوم العزم على ذلك»[٢].

قوله تعالى: "فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا "

هذا هو جواب الشرط "وَمَن يَقۡتُلۡ"، وقد جيء به جملة اسمية؛ للدلالة على الدوام والاستمرار، فإن الجزاء المستحق على القتل العدوان ثابت ودائم، و"خَٰلِدٗا " حال من فاعل فعل مقدَّرٍ اقتضاه المقام، كأن يقال: جزاؤه جهنم يُجْزاها أو يدخلها خالدا[٣].

والخلود: دوام البقاء، يقول ابن فارس: «الخاء واللام والدال أصل واحد يدل على الثبات والملازمة»[٤]، وأصله -كما يقول الراغب-: «تبرّي الشيء من اعتراض الفساد، وبقاؤه على الحالة التي هو عليها... ثم استعير للمبقيِّ دائما»[٥].

فإن قلت: هل الخلود يقتضي المكث الدائم الذي لا نهاية له؟

فالجواب: أن لفظ الخلود إن اقترن بما يدل على أنه لا نهاية له، فالأمر كما اقتضاه الدليل، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾[٦]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٦٥﴾﴾[٧]، ﴿٦٥﴾﴾[٧]، فإن لفظ الأبدية دل على أنه لا نهاية له.

وإذا لم يقترن بما يدل على أنه لا نهاية له، فإنه يحتمل أمرين:

---

(١) معاني النحو للدكتور فاضل صالح السامرائي (٤/٥٠).

(٢) نظم الدرر (٥/٣٦٤).

(٣) إرشاد العقل السليم (٢/٢١٧)، والدر المصون (٤/٧٣).

(٤) معجم مقاييس اللغة (٢/٢٠٧)، وينظر: الصحاح (٢/٤٦٩).

(٥) المفردات في غريب القرآن ص(٢٩١)، بتصرفٍ.

(٦) سورة النساء، من الآية: ٥٧.

(٧) سورة الأحزاب، الآيتان: ٦٤، ٦٥.

أنه بمعنى المكث الطويل الذي له نهاية.

وأنه بمعنى المكث الطويل الذي لا نهاية له.

فيكون ترجيح أحد الاحتمالين متوقفا على دليل آخر، وذلك نحو "الخلود" في هذه الآية الكريمة، وبيانه: إن كان القاتل كافرا فإن خلوده في جهنم على سبيل التأبيد الذي لا نهاية له لثبوت الدليل القطعي أن الكافر مخلد في النار على سبيل التأبيد.

وإن كان القاتل عمدا مؤمنا فإن خلوده له نهاية، وذلك لثبوت الأدلة الصحيحة على أنه يخرج بإيمانه من جهنم، فخلوده في النار لا يكون على سبيل التأبيد، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «يدخل أهل الجنةِ الجنةَ، وأهل النارِ النارَ، ثم يقول الله تعالى: «أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبةٍ من خردل من إيمان» فيخرجون منها قد اسودوا، فيلقون في نهر الحيا، أو الحياة -شك مالك- فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية»[1].

قوله تعالى: "وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا"

الواو عاطفة، والجملة معطوفة على "فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ"، وهو من عطف الجملة الفعلية على الجملة الاسمية، وقد أجازها جمهور النحاة[2].

وكان مقتضى السياق أن يقال: جزاه الله جهنم خالدا فيها، وغضب عليه، ولعنه، وأعد له عذابا عظيما، أو يقال: جزاؤه جهنمُ خالدا فيها، وعليه غضبُ الله ولعنتُه، وله عذاب عظيم؛ لأن الأصل اتساق الكلام، وتوافق المعطوفات.

لكن خولف بين المعطوفين للإشارة إلى أن مجازاته بجهنم عذاب أخروي، وأما الغضب واللعنة فيشمل الدنيا والآخرة، ومن ثَمَّ جيء للدلالة عليهما بالفعل الماضي الدال على الوقوع والتحقق بالفعل.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه (٢٣/١)، كتاب: الإيمان ، باب: تفاضل أهل الإيمان في الأعمال، حديث رقم: (٢٢)، ومسلم في صحيحه (١٧٢/١)، كتاب: الإيمان، باب: إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار، حديث رقم: (١٨٤)، واللفظ للبخاري.

(٢) مغني اللبيب لابن هشام ص(٥٣٨).

ولو جرى الكلام على مقتضى السياق لانصرف الجزاء إلى كونه جزاءً أخرويا فقط.

فإن قلت: فما القول في العذاب العظيم أهو عذاب دنيوي أم أخروي؟

فالجواب: أن العذاب العظيم عذاب أخروي، لكنه أعد لمستحقيه قبل قيام الساعة؛ فقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن الجنة والنار موجودتان الآن[١]، ولا يلزم من إعداده دخولُه بالفعل.

والغضب في اللغة: ثوران دم القلب إرادة الانتقام[٢]، وهذا المعنى جار على أحوال الإنسان وصفاته.

وإذا أسند إلى الله تعالى صُرِف إلى ما يليق بذاته العلية، وقد أوَّله العلماء بإعراضه تعالى عمن غضب عليه، وإرادة الانتقام منه، وهو يزيد بزيادة المعصية، يقول الطبري: «غضبُ الله على من غضب عليه من خلقه: إحلالُ عقوبته بمن غَضِبَ عليه، إمّا في دنياه، وإمّا في آخرته، كما وصف به نفسه جلّ ذكره في كتابه فقال: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥٥﴾[٣]»[٤].

واللعن: الإبعاد والطرد من الخير[٥]، يقول الراغب: «اللعن: الطّرد والإبعاد على سبيل السّخط، وذلك من الله تعالى في الآخرة عقوبة، وفي الدّنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه»[٦].

والغضب واللعن من الله تعالى المستوجَب بالقتل العمد يكون في الدنيا والآخرة، لمقتضى السياق.

ولم يفصل القرآن الكريم صور العذاب العظيم ليذهب العقل في تخيله كل مذهب.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية للطحاوي ص(٤٢٠).

(٢) المفردات في غريب القرآن ص(٦٠٨)، ولسان العرب (٦٤٩/١)، وتاج العروس (٤٨٥/٢)، مادة: غضب.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٥٥.

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن (١٨٨/١)

(٥) لسان العرب (٣٨٧/١٣)، وتاج العروس (١١٨/٣٦)، مادة: لعن.

(٦) المفردات في غريب القرآن ص(٧٤١).

فأنت ترى أن الله -جلت حكمته- أوعد على القتل عمدا عدوانا من ألوان العقاب وصوره ما لم يوعد به على ذنب آخر.

وذلك ما حمل بعض العلماء على القول بأن القتل العمد لا يقع من مؤمن، إذ لا يُتَخَيَّل أن يكون هذا العقاب المذكور في الآية في حق مؤمن، فأوَّلَ الآيةَ بأن قاتل المؤمنِ عمدا إنما يقتله لإيمانه، وهو محض كفر، أو أن القاتل مستحلٌ القتلَ، واستحلال ما حرم الله تعالى كفرٌ، أو أن الآية مخصوصة بسبب النزول[١]، وذلك كله ضعيف؛ لأن الجزاء متعلق بالقتل لا بالاستحلال، وأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

والحق أن الآية -كما قال ابن كثير-: «تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم»[٢]، وهو يشمل كل قاتل، مؤمنا كان أو كافرا.

وإنما كان هذا جزاؤه؛ لأن القتل العدوان فيه هدم لبنيان الله، وأنه يوغر صدور بعض المؤمنين على بعض، ويُشِيع بينهم العداوة البغضاء، ويؤدي إلى الافتراق المجتمعي، ويسبب الفوضى والانحلال.

فإن قلت: هل هذا الجزاء يشمل قتل غير المؤمن عمدا؟

فالجواب: أن غير المؤمن إما أن يكون حربيا أو لا، فإن كان حربيا فدمه مستباح في غير هدنة أو صلح أبرمه ولي الأمر مع الأعداء.

وإن كان غير حربي، فدمه حرام، والعدوان عليه شديد؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[٣]، فجعل قتل النفس الواحدة في الجرم كقتل الناس جميعا، ولم يفرق الحق -سبحانه- بين نفس مؤمنة وغير مؤمنة.

---

(١) تأويلات أهل السنة (٣/٣٢٨)، والتفسير الكبير (١٠/١٨٣)، وإرشاد العقل السليم (٢/٢١٧)، وحاشية الطيبي (٥/١١٨)، وإرشاد الساري (٧/٩٠).

(٢) المفردات في غريب القرآن ص(٧٤١).

(٣) سورة المائدة، من الآية: ٣٢.

ولأنه يؤدي إلى ما يؤدي إليه قتل المؤمن من الفساد الاجتماعي والخراب العمراني. لكن التنصيص على الإيمان، يقتضي أن قتل غير المؤمن ليس عليه من العقاب مثل ما على قتل المؤمن.

فإن قلت: هل للقاتل عمدا توبة؟

فالجواب: أن للقاتل عمدا عدوانا توبة؛ فقد تضافرت الأدلة على قبول توبة كل تائب ما توافرت شروطها، مع إخفاء الله تعالى قبولها؛ ليكون القلب على وجل من الله تعالى، وما روي عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه لا توبة له، فهو محمول على التهديد، فقد روي عنه أيضا أن له توبة[١].

وأما من مات، ولم يتب فمذهب أهل السنة –وهو الحق– أن أمره إلى الله تعالى، إن شاء عفا عنه، لعموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[٢].

وإن شاء عذَّبه بقدر مظلمته، ثم يخرجه من النار؛ وذلك للأدلة الصحيحة الواردة في إخراج عصاة المؤمنين من جهنم ودخولهم الجنة كحديث أبي سعيد الخدري ﷺ الذي سبق ذكره[٣].

* * *

---

(١) الأثران: أخرجهما أبو جعفر النحاس في الناسخ والمنسوخ ص(٣٤٩).

(٢) سورة النساء، من الآية: ٤٨.

(٣) يراجع ص(٢٩).

المطلب السادس: العذاب العظيم لمن حارب الله تعالى ورسوله ﷺ.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾[1].

السياق العام والخاص للآيتين الكريمتين.

وردت الآيتان الكريمتان في سورة المائدة، وهي من أواخر ما نزل من سور القرآن الكريم، قد اعتنت -كغيرها من السور المدنية- ببناء المجتمع الإسلامي، وتوطيد أركانه، وتوحيد كلمته، والتحذير مما يوهن قوته، وينخر بنيانه، لا سيما ما كان من أهل الكتاب الذين نقضوا المواثيق، وحرفوا كثيرا مما نزَّل الله، فكشفت السورة الكريمة فسادهم، وفندت شبهاتهم، وما كان من المنافقين الذين والَوْهم، ومن المحاربين الله تعالى ورسوله ﷺ، المارقين على حدود ما أمر الله به، فشرعت الأحكام التي تحفظ المجتمع من فسادهم.

فتأتي الآيتان لتؤديا حلقة من حلقات السورة المترابطة، فتلتقي تلك الحلقات جميعها عند المقصد الأسمى لها، والهدف الرئيس من نزولها.

وقد جاء ترتيب الآيتين بعد حديث السورة عن قصة ابنَيْ آدم -عليه السلام- وما كان من اعتداء أحدهما على الآخر بالقتل، وما ترتب عليه من تحريم القتل، جاءت الآيتان لبيان أن سفك الدماء إنما هي محاربة لله ورسوله ﷺ، فتكون المحاربة به وبغيره من نهب الأموال، وقطع الطرق، وإثارة الذعر في نفوس الآمنين... إلخ، ولتشريع الأحكام الزاجرة لهؤلاء عن إفسادهم، ولفتح باب التوبة لهم حتى يثوبوا إلى رشدهم وينضووا إلى المجتمع، فيعمروا الأرض ويحققوا المقاصد الربانية من خلقهم.

سبب النزول.

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٣٣، ٣٤.

اختلف المفسرون فيمن نزلت فيهم آية المحاربة، فعن أنس ﷺ قال: إن نفرا من عكل قدموا على النبي ﷺ فاجتووا المدينة، فأمرهم النبي ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة، فيشربوا من أبوالها وألبانها، ففعلوا فقتلوا راعيها واستاقوها، فبعث النبي ﷺ في طلبهم، قال: فأُتِي بهم، فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمر أعينهم، ولم يحسمهم وتركهم حتى ماتوا؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾(١).

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان قوم من أهل الكتاب بينهم وبين النبي ﷺ عهدٌ وميثاق، فنقضوا العهدَ، وأفسدوا في الأرض، فخيَّرَ الله رسوله: إن شاء أن يقتل، وإن شاء أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خِلافٍ(٢).

والراجح هي الرواية الأُولى؛ لأنها أوثق إسنادا، وقد صُرِّح فيها بسبب النزول، وأما الرواية الثانية فضعيفة، وليس فيها تصريح ببيان سبب النزول.

التفسير والبيان.

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي في سننه (٧/٩٤)، كتاب: تحريم الدم- تأويل قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣]، وفيمن نزلت، وذكر اختلاف ألفاظ الناقلين لخبر أنس بن مالك فيه، حديث رقم: (٤٠٢٥).

وأخرجه عبد الرزاق الصنعاني في المصنف (١٠/١٠٦)، كتاب: العقول، باب: المحاربة، حديث رقم (١٨٥٣٨).

وأصله في الصحيحين: صحيح البخاري (٣/١٣٣)، كتاب: المغازي، باب: قصة عكل وعرينة، حديث رقم: (٤١٩٢)، وصحيح مسلم (٣/ ١٢٩٦)، كتاب: القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب: حكم المحاربين والمرتدين، حديث رقم: (١٦٧١)، ولم يذكر فيهما "فأنزل الله..."

(٢) الأثر: أخرجه الطبري في جامع البيان (١٠/٢٤٣)، والطبراني في المعجم الكبير (١٢/٢٥٦)، حديث رقم (١٣٠٣٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١٥): «رواه الطبراني، وعلي بن أبي طلحة لم يسمع ابن عباس».

يشرع الله تعالى لعباده من الأحكام التي تكفل لهم حياة الأمن والأمان على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وعلى النظام العام للأمة الإسلامية، فإن الاعتداء عليهم من أشد الجرائم خطرا، وأبشعها أثرا،؛ إذ إنها تقوض بنيان المجتمع، وتزلزل كيانه، فرتب الحق –سبحانه– عليها من الجزاء الرادع عنه في الدنيا أخزاه، وفي الآخرة أعظمه، ويتضح ذلك من خلال ما يلي:

قوله تعالى: "إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا"

مقتضى سياق الآيات أن يقال: "إنما جزاؤهم"؛ أي: جزاء المسرفين في الأرض، الذين ختمت بهم الآية السابقة، حيث قال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ٣٢﴾[1]، لكن عُدِل عنه؛ لتعليق الحكم بالوصف وإرادة العموم[2]، ولتصوير إسرافهم في أبشع صوره، وهو كونه محاربة لله ولرسوله ﷺ وسعيا في الأرض بالفساد.

و"يُحَارِبُونَ " من المحاربة، وهي مفاعلة من الحرب، وهو: ضد السّلم[3]، أو السلب، ويقول ابن فارس: «الحرب: السلب. يقال: حربته ماله، وقد حُرِب ماله؛ أي: سُلِبه»[4].

وعرفها الفقهاء بأنها: البروز لأخذ مال أو لقتل أو إرعاب مكابرةً اعتمادا على الشوكة[5]، سواء كانت في مصر أو في صحراء، خلافا للمذهب الحنفي الذي قيده بالصحراء.

وقد جاء الفعل على صيغة المفاعلة التي تقتضي وقوعها بين اثنين فأكثر، وهي محالة في حق الله تعالى لاقتضائها الجهة والتحيز بين المتحاربين، والله تعالى منزه عن الجهة والتحيز، ولما ثبت له من صفات

---

(١) سورة المائدة، من الآية: ٣٢.

(٢) نظم الدرر (١٢٩/٦).

(٣) لسان العرب (٣٠٢/١)، مادة: حرب.

(٤) معجم مقاييس اللغة (٤٨/٢)، مادة: حرب.

(٥) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للكاساني (٩٠/٧)، والمقدمات الممهدات لأبي الوليد القرطبي (٣/ ٢٢٨)، وأسنى المطالب في شرح روض الطالب لزكريا الأنصاري (١٥٤/٤)، والعدة شرح العمدة للمقدسي ص(٦٠٩).

الكمال المطلق وعموم القدرة[1]، فاستحال المعنى الحقيقي وتعيّن صرفه عنه.

فمحاربة الله تعالى تطلق على مخالفة أمره[2]، وقد حدها العلماء بالمخالفة المتعلقة بالمؤمنين من حيث ترويعهم، وسلب أموالهم، وسفك دمائهم، والاعتداء على أعراضهم مغالبةً مجاهرةً، فهؤلاء المروعون المؤمنين، الخارجون على حدود ما شرع الله ورسوله من الأحكام، كأنهم بذلك يحاربون الله ورسوله ﷺ.

ففي الكلام حذف، تقديره: إنما جزاء الذين يحاربون أولياء الله ورسوله، وفي هذا الحذْفِ ما يصور بشاعة جرمهم وسوء صنيعهم، يقول شيخنا الدكتور طنطاوي: «وعبر –سبحانه– عمن يحارب أولياءه وشرعه بأنهم محاربون له ولرسوله لزيادة التشنيع عليهم، ولبيان أن كل من يهدد أمن المسلمين ويعتدى عليهم يكون محاربا لله ولرسوله ومستحقا لغضبه – سبحانه– وعقوبته»[3].

وحمل الزمخشري المحاربة على محاربة رسول الله ﷺ، وذكر الله – تعالى– للتمهيد[4]، وشملت الآية محاربة المؤمنين بدلالة المفهوم، وكأنه – رحمه الله– حمل الآية على المرتدين.

والأول أولى؛ لأن محاربة الرسول ﷺ كفرٌ به، ولأن توبة المرتدين بعد القدرة عليهم تسقط عنهم العقوبة.

و"وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا " تبيين لـ"يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ "[5]، فهي معطوفة عليه من عطف المبيِّن على المبيَّن، وفائدة هذا العطف الإشارة إلى أن الجزاء المترتب عليه إنما هو لحسم الفساد ومنعه، فلا يجوز العفو عنه، فلو أن المحارب –وهو حر مسلم– قتل عبدا أو ذميا قُتِل به، ولا يُنظَر

(١) الميزان في تفسير القرآن للسيد الطباطبائي (٥/٣٣٣).

(٢) أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي (٢/٩١).

(٣) التفسير الوسيط للقرآن الكريم (٤/١٣٠).

(٤) الكشاف (١/٦٢٨).

(٥) المحرر الوجيز (٢/١٨٥)، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي (١/٢٣٠).

إلى التكافؤ بينهما، كما أنه لا يجوز لولي الدم العفو أو الدية؛ لأن قتله حينئذٍ إنما هو لحسم الفساد، وليس للقصاص.

والسعي هو: المشي السّريع، ويستعمل للجدّ في الأمر، خيرا كان أو شرّا[١]، فالتعبير به يوحي بجدهم وإصرارهم على فعالهم.

ولما كان السعي يستعمل في الخير والشر، قال: "فَسَادًا"؛ ليبين نوع السعي، فهو تمييز مبيِّن لنوع عامله، ويجوز أن يكون مؤكِّدا له، على تأويل "وَيَسْعَوْنَ" بـــ"يفسدون"، وصحح هذا التأويلَ دلالةُ السياق.

فإن قلت: السعي لا يكون إلا في الأرض، فما الفائدة من ذكر "فِي ٱلْأَرْضِ" في الآية الكريمة؟

فالجواب: أن فيه إشارةً إلى استشراء خطرهم، وتفاقم أمرهم، وتعاظم شرهم، فهم عصابة انتشروا في الأرض ساعين فيها بالفساد، وتقوّى بعضهم ببعض.

قوله تعالى: "أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ"

تفصيل لجزاء هؤلاء المحاربين لله ورسوله ﷺ في الدنيا، وقد جاء بيان هذا الجزاء بأسلوب الحصر والقصر لتأكيد النسبة[٢] وبيان أنه لا يسقط في حال من الأحوال إلا الحال التي استثناها الله بقوله سبحانه: "إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ".

وقد ذكر الله تعالى أربعة أنواع من الجزاء المترتب على المحاربة والإفساد في الأرض، وهي: القتل، والصلب، والقطع، والنفي، وهو الحبس أو المطاردة من بلد إلى أخرى حيث حلَّ بحيث لا يستقر له قرار فتقوى شوكته.

وقد عُطِف بعضها على بعض بـــ"أو"، فهل هي للتخيير أو للتفصيل؟

فالجواب: أنه اختلف العلماء فيها على قولين:

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص(٤١١).

(٢) التحرير والتنوير (١٨١/٦).

الأول: أنها للتخيير، فالإمام –وهو المكلَّف بإقامة الحدود– مخيَّر بين هذه الأنواع، وهو مذهب الإمام مالك ﷺ.

الثاني: أنها للتفصيل، فيكون العقاب على قدر الجناية، فمن قَتَل قُتِل، ومن أخذ مالا قُطِع، ومن أخاف نُفِي، وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي رضي الله عنهما.

يقول ابن رُشد: «وسبب الخلاف هل حرف "أو" في الآية للتخيير أو للتفصيل على حسب جناياتهم؟»[١] أ.هـ.

والأرجح عندي هو مذهب الإمام مالكٍ، فللإمام أن ينظر أيهم أكثر تأثيرا، فيُقْتَل ويُصْلب، ولو لم يَقْتل، فمدار التخيير في ذلك على مقدر وقوع الفساد أو توقعه، وللمسألة فروع في كتب الفقه.

وتضعيف الأفعال الثلاثة في قوله: "أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ" لإفادة التكثير فيها؛ لأن الشأن أن يكون المحارَبون جماعة، مع ما فيه من الإشارة إلى ضرورة عدم الرفق بهم أو الهوادة في إقامته عليهم، وعدم التجاوز عنهم قطعا، وليس التضعيف فيها للمبالغة؛ فإن القتل أو الصلب أو القطع لا تفاوت فيه.

قوله تعالى: "ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ"

تضمن نوعين من الجزاء:

- دنيوي، وهو الخزي، والمراد به ما فُصَّل من جزاءٍ من القتل والصلب والقطع والنفي، وقد أشير إليه باسم الإشارة الموضوعة للبعد "ذَٰلِكَ" –وكان المقتضى أن يشار إليه بـ"هذا"؛ لقربه في الذكر–؛ لكونه فيه كسر لشوكتهم، وتفريق لجماعتهم، وإذلال لهم أي إذلال.
- أخروي، وهو العذاب العظيم، ولم يرد لهذا العذاب تفصيل، كما فُصِّل الجزاء الدنيوي؛ لقصد التهويل والتفخيم، فيذهب العقل في تخيله كل مذهب.

والواو في "وَلَهُمۡ" عاطفة، أفادت الجمع بين العذابين، فهؤلاء المحاربون جمع الله لهم ما بين نكال الدنيا وعذاب الآخرة.

---

(١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد (٢٣٩/٤).

فإن قلتَ: أليست الحدود جوابر؟ وقد قال النبي ﷺ: «ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه»[١].

فالجواب: نعم، فالله -تعالى- أكرم أن يجمع على عبده عقابين، لكن لما كان الغالب أن الحرابة تقع من غير المؤمنين، جمع الله لهم بين العذابين. وفي ذلك إشارة إلى أن المؤمن الصادق لا يلم بشيء من ذلك أصلاً، فإن استُدْرِجَ أو أُضِلَّ ووقعت منه حرابة، فعوقب به في الدنيا لم يؤاخذ به في الآخرة، يقول ابن عاشور: «يجوز أن يكون ما في الآية تغليظا على المحاربين بأكثر من أهل بقية الذنوب، ويجوز أن يكون تأويل ما في هذه الآية على التفصيل؛ أي: لهم خزي في الدنيا إن أخذوا به، ولهم في الآخرة عذاب عظيم إن لم يؤخذوا به في الدنيا»[٢].

وإنما كان هذا جزاءهم لما ترتب على فِعالهم من تعطيلٍ لأحكام الله، ومدافعةٍ للقائمين عليها من ولاة الأمور، وترويعٍ للآمنين، وسفكٍ للدماء، واستحلالٍ للأموال بل والأعراض، وتقويضٍ لبنيان المجتمع، ومنعٍ للسابلة تسعى لطلب الرزق وعمارة الأرض؛ إذ الجزاء من جنس العمل.

لكل هذا وما يترتب عليه من مفاسد تقضي على أمن المجتمع وسلامته؛ استحق أن يوصف عذابهم في الآخرة بالعِظَم تناسبا مع شناعة أفعالهم، وسوء مقصدهم.

ولما كان المقصود من هذا العقاب منع فسادهم وردعهم عنه، فتح الله لهم باب التوبة الرجوع، ورغبهم في المسارعة إليها قبل القدرة عليهم بأنها تُسْقط عنهم الحد في الدنيا والعقاب في الآخرة، فقال: "إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ"، أما توبتهم بعد القدرة عليهم فإنها نافعة لهم في الآخرة.

* * *

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه (٤/٢٤٧)، كتاب: الحدود، باب: الحدود كفارة، حديث رقم: (٦٧٨٤)، ومسلم في صحيحه (٣/ ١٣٣٣)، كتاب: الحدود، باب: الحدود كفارات لأهلها، حديث رقم (١٧٠٩)، عن عبادة بن الصامت ﷺ واللفظ للبخاري.

(٢) التحرير والتنوير (٦/١٨٦).

المطلب السابع: العذاب العظيم لمن حرف ما أنزل الله من الكتاب.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٤١﴾[١].

السياق العام والخاص للآية الكريمة.

الآية الكريمة وردت في سورة المائدة، وقد سبق بيان الغرض الرئيس لها[٢]، وقد جاءت الآية كاشفة لصورة من صور إفساد اليهود وإخوانهم المنافقين، وهو: كفرهم وتحريفهم لما أنزل الله من التوراة، وبيان ما له من أثر في هدم أركان الدين وبنيان المجتمع.

وتأتي هذه الآية الكريمة بعد تشريع أحكام رادعة للعابثين بأمن واستقرار المجتمع، لتكشف صورة من صور الاعتداء هي أشد خطرا وأبعد أثرا في هدم بنيان المجتمع، ألا وهو ما أنزل الله من كتاب والاستبدال به الأهواء الشخصية والنزعات النفعية.

سبب نزول الآية الكريمة.

تعدد الروايات في سبب نزول الآية، وأصح ما ورد فيه ما أخرجه الشيخان عن البراء بن عازب ﵁، قال: مُرَّ على النبي ﷺ بيهوديٍّ محمَّماً مجلودا، فدعاهم ﷺ، فقال: «هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟»، قالوا: نعم، فدعا رجلا من علمائهم، فقال: «أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟» قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤١.

(٢) يراجع ص(٣٣).

نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه»، فأمر به فرجم، فأنزل الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ﴾، يقول: ائتوا محمدا ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٤٤﴾[1]، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٥﴾[2]، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٤٧﴾[3] في الكفار كلها»[4].

التفسير والبيان

لقد بيَّنت الآية الكريمة من الجرائم التي اقترفها المنافقون واليهود في دين الله، والمكايد التي حاكوها للنبي ﷺ وللمؤمنين، ما استحقوا به الخزْيَ في الدنيا من فضيحة أمرهم، وظهورِ كذبهم، ودحضِ باطلهم، وخيبةِ مسعاهم، والعذابَ العظيمَ في الآخرة الذي لا تدرك كنهه عقولنا، ولا تحيط به معارفنا، وما ذلك إلا لشناعة جرمهم، وسعيهم الدؤوب في هدم المجتمع، ويتضح ذلك من خلال ما يلي:

قوله تعالى: " يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ".

استهلال بنداء رسول الله ﷺ بأسمى الصفات وأجل السمات، وهي صفة الرسالة، التي هي محض اصطفاء من الله تعالى، وقد تكرر النداء بها في

---

(١) سورة المائدة، من الآية: ٤٤.

(٢) سورة المائدة، من الآية: ٤٥.

(٣) سورة المائدة، من الآية: ٤٧.

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه (٢/٥٣٧)، كتاب: المناقب، باب: باب قول الله تعالى: ﴿□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ﴾ [سورة البقرة، من الآية: ١٤٦]، حديث رقم: (٣٦٣٥)، عن ابن عمر رضي الله عنهما، ومسلم في صحيحه (٣/ ١٣٢٧)، كتاب: الحدود، باب: رجم اليهود أهل الذمة في الزنى، حديث رقم (١٧٠٠) عن البراء ﷺ، واللفظ لمسلم.

القرآن الكريم مرة أخرى في هذه السورة الكريمة، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾[1].

وفي هذا النداء تسلية له ﷺ وتسرية عن نفسه مما يجده من كيد اليهود والمنافقين ومكرهم، وبيان أنهم لن يضروه، فالله حافظه وناصره، وقد أوثر النداء بصفة الرسالة في الموضعين دون صفة النبوة مع ما فيهما من التشريف والتكريم الرباني له ﷺ؛ لأن ما يتعلق بمضمون الخطاب فيهما؛ أي: الموضعين، هو من شؤون الرسالة[2]، فتبليغها والمحافظة عليها من التحريف والتبديل والتأويل الفاسد هو في الغالب شأن الرسالة.

و"لَا يَحۡزُنكَ..." قد سبق الحديث عنه[3] في قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾[4].

والفرق بين الموضعين أنه سورة آل عمران لم تبين الآية وجوه مسارعتهم في الكفر، وإنما هو مستنبط من السياق العام للآيات، وفي هذا الموضع بيَّنه بقوله: "مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ ....".

قوله تعالى: "مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ".

بيان للذين يسارعون في الكفر، والمراد بهم المنافقون واليهود[5].

وقد فصلت الآية الكريمة صور مسارعتهم في الكفر وتقلبهم فيه من دركة إلى أخرى هي أكثر عمقا وأشد خطرا مما قبلها، في عبارات موجزة:

قوله تعالى: "قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ".

---

(١) سورة المائدة، من الآية: ٦٧.

(٢) زهرة التفاسير (٤/٢١٨٤).

(٣) يراجع ص(٢١).

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٧٦.

(٥) إرشاد العقل السليم (٣/٣٦).

فقد وصف الله إيمانهم بأنه لم يجاوز ألسنتهم إلى قلوبهم التي هو محل الإيمان، وهو وصف للفريقين معا: اليهود والمنافقين

وبيان ذلك: أن الواو في "وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ" عاطفة، والجملة بعدها معطوفة على "مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ ...."، والمعنى: ومن الذين هادوا قالوا بأفواههم: آمنا[1]، ويؤيد هذا التوجيه قراءة الضحاك: "سمَّاعين"، بالنصب على الذم[2]، وهو ما يؤيد اتصال الكلام بما قبله، فليست الواو استئنافية، كما قيل.

فالمنافقون يقولون بألسنتهم: آمنا؛ أي: بمحمد ﷺ، واليهود يقولون بألسنتهم: آمنا؛ أي: بموسى عليه السلام، ولو أن هؤلاء وهؤلاء آمنوا حق الإيمان، ما كادوا للنبي ﷺ والمؤمنين، وما حرفوا ما نزل الله من كتاب.

وقوله: "بِأَفۡوَٰهِهِمۡ" جار ومجرور متعلق بــ"قَالُوٓاْ"، وليس متعلقا بــ"ءَامَنَّا"، وكان المقتضى أن يقال: "قالوا بأفواههم: آمنا"، وإنما قُدِّم "ءَامَنَّا" عليه؛ لإظهارهم المسارعة إلى الإيمان؛ إمعانا في تضليل المؤمنين، وقد خلا قولهم عن شيء من أدوات التأكيد لإيهام أن إيمانهم صار من الوضوح ما لا يحتاج معه إلى تأكيد.

قوله تعالى: "سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ".

صورة أخرى من صور مسارعتهم في الكفر، وهو وصف للفريقين معا، على اعتبار أن "سَمَّٰعُونَ" خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم سماعون[3]، يعود على الذين يسارعون في الكفر من اليهود والمنافقين، يقول أبو السعود: «قوله تعالى: "سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ"، خبر لمبتدأ محذوف راجع إلى الفريقين

---

(١) يجوز أن تكون الواو استئنافية، و" □ □ □" خبر مقدم، و"□"، صفة أقيم مقام موصوفه، مبتدأ مؤخر، والتقدير: ومن الذين هادوا قوم سماعون (الدر المصون (٤/ ٢٦٧).

(٢) قراءة شاذة: ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز (٢/١٩٢)، وأبو حيان في البحر المحيط (٤/٢٦٠)، والحلبي في الدر المصون (٤/ ٢٦٧).

ويجوز أن يكون النصب على الحال من الضمير المرفوع في "□"؛ أي: يسارعون في الكفر حال كونهم سماعين للكذب.

(٣) البيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري (١/٢٩١).

أو إلى المسارعين، وأما رجوعه إلى الذين هادوا فمخلٌّ بعموم الوعيد الآتي»[١].

وجاء التعبير عن سماعهم للكذب بصيغة المبالغة "سَمَّٰعُونَ "، لبيان إلفهم له واستمرائهم، وإقبالهم عليه بغاية من الاهتمام به والرغبة في تلقيه والقبول له.

واللام في "لِلْكَذِبِ" للعلة[٢]، والمعنى: أنهم يسمعون كلام رسول الله ﷺ لأجل أن يكذبوا على الله تعالى ورسوله ﷺ، بأن يزيدوا عليها أو ينقصوا منها فيكون كلامهم حينئذٍ محل قبول عند السذج ومن لا علم له بحالهم بحجة جلوسهم بين يدي النبي ﷺ وتلقيهم منه، وأن يثيروا حول كلامه ﷺ الشبهات، فيلقوا الشكوك في نفوس المؤمنين، ويصدوا الناس عن دين الله، فيبنوا شبهاتهم حينئذ على ما يعرفون، يقول ابن عطية: «مبادئ كذبهم لا بد أن تكون من أشياء قِيلت أو فُعِلت، وهذا هو الكذب المزين الذي يقرب قبوله، وأما الكذب الذي لا يرفد بمبدأ فقليل الأثر في النفس»[٣].

ويجوز أن تكون اللام لتقوية العمل، أو لتضمين السماع معنى القبول[٤]؛ والمعنى: أنهم يسمعون ما يفتريه سادتهم وكبراؤهم من كذبٍ على الله تعالى، سواء فيما أنزله على نبيه موسى عليه السلام أو نبيه محمد ﷺ، سماع إذعان وقبول له.

قوله تعالى: "سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ".

وهو خبر للمبتدأ محذوف تقديره: هم[٥]، يعود على ما عاد عليه الضمير الأول، فهو وصف آخر للفريقين، وتسجيل عليهم بجريمة أخرى، وهي أنهم يعملون عيونا وجواسيس لسادتهم وكبرائهم، فهم يتسمعون من النبي ﷺ

---

(١) إرشاد العقل السليم (٣/٣٦)، وينظر: المحرر الوجيز (٢/١٩٢).

(٢) الدر المصون (٤/٢٦٧).

(٣) المحرر الوجيز (٢/١٩٢).

(٤) التبيان في إعراب القرآن (١/ ٤٣٧)، وإرشاد العقل السليم (٣/٣٧).

(٥) إرشاد العقل السليم (٣/٣٧)

وأصحابه، لينقلوا أخبارهم إليهم، فيبنوا عليها شبهاتهم وأكاذيبَهم، فاللام على هذا التوجيه للعلة.

ويجوز أن تكون اللام للتضمين أو للتقوية؛ أي: أنهم يسمعون كذب وافتراء كبرائهم وساداتهم سماع قبول وإذعان، فتكون الجملة بيانا لقوله: "□ □"، يقول السمين الحلبي: «يجوز ان تكون هذه تكريراً للأولى، فعلى هذا يجوز أَنْ يتعلَّقَ قولُه "لِقَوۡمٍ" بنفس الكذب؛ أي: يَسْمعون ليكذبوا لأجل قوم»[1]، وهو احتمال مرجوح بقاعدة: "بناء الكلام على التأسيس أولى من حمله على التأكيد".

وقد وصف الله الآخرين بقوله: "لَمۡ يَأۡتُوكَ"؛ أي: أنهم لأنفتهم وكبرهم، أو لإفراطهم في البغضاء، أو لخوفهم على مكانتهم في نفوس أتباعهم لم يأتوا إلى مجالسك، فهو وصف لهم بالكِبْر، وشدة البغض، والتدليس على السذج من الناس.

قوله تعالى: "يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ ".

خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم يحرفون[2]، فالجملة وصف للمنافقين واليهود ببيان اجترائهم على الله، وهو وصف لمجموعهم لا لجميعهم، فبعضهم يسمعون من رسول الله ﷺ للكذب عليه، وبعضهم يسمعون لنقل أخباره ﷺ إلى سادتهم وكبرائهم، وبعضهم يحرفون ما أنزل الله من كتابٍ، وهو صورة أخرى من صور مسارعتهم في الكفر.

و"يُحَرِّفُونَ"، من الحرف، وهو: الميل[3]؛ أي: يُميلون الكلام عن معناه الثابت، ويحملونه على غير محمله.

و"ٱلۡكَلِمَ" هو جمع كلمة، والمراد به: ما أوحى الله تعالى به، فيشمل التوراة، والقرآن، وكلام النبي ﷺ.

---

(١) الدر المصون (٤/٢٦٧).

(٢) ويجوز أن تكون جملة مستأنفة استئنافا بيانيا، بيَّنت كيفية سماعهم لقوم آخرين (الدر المصون (٤/٢٦٨).

(٣) معجم مقاييس اللغة (٢/٤٢).

و"مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ"؛ أي: من بعد استقراره، ووضوح معانيه، وبيان حلاله وحرامه، والعمل بما فيه[١].

والمعنى: أنهم؛ أي: المنافقين واليهود، يحرفون القرآن والتوراة وما سمعوا من النبي ﷺ، ويميلونها عن أماكنها التي وضعها الله فيها، من غير عذر من التباس معانيها.

يقول شيخنا الدكتور طنطاوي: «وعبر هنا بقوله: "مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ "، وفي مواطن أخرى بقوله: "عَن مَّوَاضِعِهِۦ"[٢]؛ لأن المقام هنا للحديث عن الأحكام المستقرة الثابتة التي حاول أولئك المسارعون في الكفر تغييرها وإحلال أحكام أخرى محلها تبعا لأهوائهم كما حدث في قضية الزنا وفي غيرها من القضايا التي تحاكموا فيها إلى رسول الله ﷺ، فكان من المناسب هنا التعبير بقوله: "مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ"؛ أي: من بعد استقرار مواضعه وثبوتها ثبوتا لا يقبل التحريف أو التغيير أو الإهمال»[٣].

وتحريفهم لكلام الله – تعالى – له وجوه:

– كتمانهم له، كما قال – تعالى – في حق أهل الكتاب: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾[٤].

– تبديلهم ما افتروه به، كما بدلوا التحميم والجلد –في زنا المحصن– بالرجم، وكما بدلوا "حنطة"، بـــ"حطة"، في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾[٥].

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١٧٥/٢)، والبحر المحيط في التفسير (٢٦٢/٤)، والتحرير والتنوير (٢٠٠/٦).

(٢) سورة النساء، من الآية: ٤٦.

(٣) التفسير الوسيط للقرآن الكريم (١٣٠/٤).

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧١.

(٥) سورة البقرة، من الآيتين: ٥٨، ٥٩.

- إثارة الشبهات حوله، كما أثاروا الشبهات حول تحويل القبلة، كما قال سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾(١).

- محاولتهم إضلال النبي ﷺ عنه؛ أي: ما أنزل الله إليه، كما قال جل شأنه: ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾(٢).

- حملهم له على غير ما أريد به من غير تأويل سائغ.

قوله تعالى: "يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْ"

يقول الذين لم يحضروا مجلس رسول الله ﷺ أنفةً وكبرا: إن حكم لكم محمد ﷺ بهذا الحكم -وهو خلاف ما أنزله الله في كتابه- فاقبلوه منه، وإن لم يحكم به، فلا تقبلوه.

وقد عبروا عن حكم رسول الله ﷺ بـــالإيتاء؛ لغمزه ﷺ فيما يحكم به، وبيان أن هذا الحكم من قِبَله هو ﷺ، وليس مما أُوحي به إليه.

وجيء بالفعل مبنيا لما لم يُسَمّ فاعله "أُوتِيتُمۡ"، و"تُؤۡتَوۡهُ"، مع كون الفاعل معلوما، وهو النبي ﷺ؛ أنفةً منهم وتكبرا أن يذكروه بوصف الرسالة أو النبوة، أو باسمه. أو أنهم قصدوا الإبهام؛ أي: إن حكم لكم أيٌّ أحدٍ بغير هذا الحكم فلا تقبلوه، فيقصروا تبعيتهم لهم دون غيرهم.

وفي التعبير عن نهيهم عن قبول ما حَكَم به ﷺ بـــ"□"، ما ينبئ عن شدة تخوفهم من ميل أتباعهم إليه؛ لأن كلامه ﷺ مما يقنع العقل وينشرح له الصدر وتتجاوب له الفطرة، فهو محل قبول وإذعان، ولأن قبولهم له مما ينبههم لما في التوراة من تحريف.

وقوله تعالى: "وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا"

وسْمٌ لهم بالضلال، وبيان لسبب وقوعهم في الجرائم التي اقترفوها، وهو أن الله أراد فتنتهم، يقول الآلوسي: «والمراد العموم، ويندرج فيه المذكورون اندراجا أوليا، وعدم التصريح بكونهم كذلك للإشعار بظهوره واستغنائه عن الذكر»(٣).

---

(١) سورة البقرة، من الآية: ١٤٢.

(٢) سورة المائدة، من الآية: ٤٩.

(٣) روح المعاني للألوسي (٣٠٨/٣)، وينظر: إرشاد العقل السليم (٣٨/٣).

والفتنة هي: الامتحان والاختبار، تقول: فَتَنْت الذهبَ، إذا أدخلته النار لتنظر ما جودته[١]، والمراد بها هنا الكفر، وأُطلِق عليه فتنةً؛ لكونه أعظم بلية ومحنة يظهرها الاختبار[٢].

والمعنى: ومن يرد الله كفره، فلن تملك له أيها النبي ﷺ على قربك من الله تعالى ومكانتك عنده، أن تدفع عنه شيئا مما أراده الله به.

وقوله تعالى: " أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡ".

تعليل لنهيه ﷺ عن الحزن، وما بين النهي وعلته، تفصيل لوجوه مسارعتهم في الكفر، وبيان أن ما تعلقت به أرادة الله تعالى من وقوع المنافقين واليهود فيما وقعوا فيه من قبائح الصنائع وجرائم الفعال كان بسبب سوء اختيارهم، ولم يكن منه -سبحانه- ابتداءً[٣]، يقول السيد رشيد رضا: «إن إرادته -تعالى- إنما تتعلق بما اقتضته حكمته البالغة وسننه العادلة، ومن سننه في قلوب البشر وأنفسهم أنها إذا جرت على الباطل والشر، ونشأت على الكيد والمكر، واعتادت اتخاذ دينها شبكة لشهواتها وأهوائها، ومردت على الكذب والنفاق، وألفت عصبية الخلاف والشقاق، وصار ذلك من ملكاتها الثابتة وأخلاقها الموروثة الثابتة، تحيط بها خطيئتها، وتطبق عليها ظلمتها، حتى لا يبقى لنور الحق منفذ ينفذ منه إليها، فتفقد قابلية الاستدلال والاستبصار في توفيق الأقدار للأقدار، وهؤلاء الزعماء وأعوانهم من اليهود قد صُبُّوا في قوالب تلك الصفات الرديئة صبا، فلا تقبل طبائعهم سواها قطعا، فهذا هو سبب عدم تعلق إرادة الله تعالى بأن يطهر قلوبهم مما طُبِع عليها؛ لأن إرادته تطهير قلوبهم وهم متصفون بما ذكرنا إبطال للقدر، وتبديل لما اقتضته الحكمة من السنن»[٤].

و"أُوْلَٰٓئِكَ" اسم اشارة يعود على المسارعين في الكفر، وقد أشير إليهم بما يفيد معنى البعد؛ لبعدهم في الفساد والضلالة وإغراقهم فيه.

---

(١)الصحاح (٢١٧٥/٦)، والمفردات في غريب القرآن ص(٦٢٣)، مادة: فتن.

(٢) حاشية القونوي (٤٦٥/٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (٣٨/٣)، وروح المعاني (٣٠٨/٣).

(٤) تفسير المنار (٣٢٣/٦).

قوله تعالى: "لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ".

بيان لجزاء المنافقين واليهود الذين ارتكبوا ما ارتكبوه من الجرائم التي عددتها الآية الكريمة، فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيا وقعت جوابا عن سؤال نشأ عما قبلها: ما جزاء هؤلاء الذين فعلوا كذا وكذا، فلم يرد الله أن يطهر قلوبهم، فقال: "لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ..."، فقد جمع الله لهم بين جزاءين: دنيوي، وهو الخزي، وأخروي، وهو العذاب العظيم.

أما الخزي الذي كتبه الله عليهم في الدنيا فيتمثل في وجوه عديدة، أبرزها:

- أن الله فضح أمرهم وهتك سترهم بأن أطلع نبيه ﷺ على كذبهم وتحريفهم ما أنزل الله إليهم.

- ما أصابهم من غم بظهور الإسلام وعلو كلمته وقوة شوكته، وعدم ضيره بكيدهم ومكرهم.

- أن الله كتب على اليهود الذلة والمسكنة، فلا يعيشون بين الناس إلا بمكر وخديعة أو في كنف غيرهم.

- أن الله قطعهم في الأرض أمما، فلا يجمعهم جامع، ولا يربط بينهم رابط، وفرق بين قلوبهم، وإن حسبهم من لا علم له بحقيقة أمرهم.

- أن اليهود كانوا يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون.

وغير ذلك من وجوه الخزي المستفادة من تنكير "خزي" حيث أفاد من التهويل والتفخيم.

أما عذاب الآخرة، وهو العذاب العظيم، ما أعد لهم في النار مما لا يقادر قدره، ولا يدرك كنهه، مع الخلود فيها.

وإنما استحق هؤلاء وهؤلاء ذللك الخزي الدنيوي والعذاب الأخروي لنقضهم العروة الوثقى والمقصد الأسمى الذي خُلق الإنسان له، وهي عروة الإيمان والإصلاح، ولخروجهم على دين الله وتحريفهم له، ولتفريقهم وحدة المجتمع، فجعلوه أحزابا متناحرة، كل حزب بما لديهم فرحون.

* * *

المطلب الثامن: العذاب العظيم للمنافقين.

قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾[١].

السياق العام والخاص للآية الكريمة.

الآية الكريمة وردت في سورة التوبة، وهي من أواخر سور القرآن الكريم نزولاً، يقول أبو جعفر النحاس: «لا أعلم خلافا أنها من آخر ما نزل بالمدينة»[٢]، وقد عُنِيت السورة ببيان المنهج الذي يجب على المؤمنين أن يسلكوه، حتى تبقى كلمتهم عالية قوية[٣]، وقد صنَّفت السورة الكريمة الناس أصنافا على أساس واحد، وهو الإيمان بالله وما يقتضيه من العمل الصالح، وعدمه، إلى أصناف، هم:

- مؤمنون خُلص، وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان.
- مؤمنون صالحون، لكنهم خلطوا أعمالهم الصالحة أعمالا سيئة.
- منافقون من أهل البدو والحضر –سواء من ظهر نفاقهم، أو مردتهم الذين أخفوا نفاقهم وقد كثر الحديث عنهم في السورة الكريمة، حتى سميت: الفاضحة، والكاشفة، والمبعثرة، والحافرة، والمدمدمة، والبَحُوث، والعاقبة، والمشردة[٤]، يقول أبو زهرة: «ويكرر الله –تعالى– ذكرهم (أي: المنافقين في السورة)؛ لأنهم آفة الجماعات، وداؤها الدوى، ولا تنهض جماعة إلا بإبعادهم عن بيئتها الفكرية»[٥].
- مشركون من أهل المدينة الأعراب وغيرهم.
- أهل كتاب من اليهود والنصارى.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠١.

(٢) الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النَّحَّاس ص(٤٧٧)، وينظر: تفسير ابن كثير (١٠١/٤).

(٣) التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي (١٧٩/٦).

(٤) ينظر أسماء هذه السورة ومعانيها في: الكشاف (٢٤١/٢)، والمحرر الوجيز (٣/٣)، ومحاسن التأويل (٣٤٣/٥)، والتحرير والتنوير (٩٥/١٠).

(٥) زهرة التفاسير (٣٤٣٠/٧).

وقد رسمت السورة الكريمة المنهج الأمثل في التعامل مع كل صنف من هذه الأصناف حتى يبقى بُنيان المجتمع الإسلامي فتيا قويا.

وقد جاءت هذه الآية الكريمة مبينة حال المردة من المنافقين إثر بيان الصنف الأول من الناس، وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

التفسير والبيان.

جاءت هذه الآية الكريمة مبينة جزاء مردة المنافقين وما أعده الله لهم من عذاب في الدنيا والآخرة؛ لما لهم من أثر في تقويض بنيان المجتمع الإسلامي، فهم أعضل داء، وأخطر بلاء على الأمة الإسلامية.

وقد جاءت عبارات الآية الكريمة متآزرة في الكشف عن خطورة أمرهم، ومتسقة مع ما أعده الله لهم من عقاب حيث جمع لهم بين عذابين في الدنيا وبين العذاب العظيم في الآخرة ، كما يتضح فيما يلي:

قوله تعالى: "وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ "

جملة بيانية، مسوقة لبيان نفاق بعض الأعراب الذين نزلوا حول المدينة المنورة –وهم قبيلة جُهَيْنة ومُزَيْنة وأسلم وأشجع وغِفَار وغيرهم[١]– ونفاق بعض أهلها[٢].

و"ٱلْأَعْرَابِ ": سكان البادية خاصة، لا واحد له من لفظه[٣].

و"مُنَٰفِقُونَ"، النفاق: من النفق، وهو: سرب في الأرض له مخلص إلى مكان، وسمى المنافق به؛ لأنه ينفق كاليربوع له نافقاء، وهي جحرة يكتمها ويظهر غيرها، فالمنافق يخرج من الإيمان من غير الوجه الذي دخل فيه، أو لأنه يستر الكفر كالذي يدخل في النفق فيستتر به[٤].

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي ص(٢٥٦).

(٢) حاشية القونوي (٩/٢٤٣).

(٣) الصحاح (١/١٧٨)، وتاج العروس (٣/٣٣٣)، مادة: عرب.

(٤) الصحاح (٤/١٥٦٠)، والمفردات في غريب القرآن ص(٨١٩)، وتاج العروس (٢٦/٤٣٢)، مادة: نفق.

والنفاق قسمان:

- أصغر، وهو نفاق العمل، وهو المراد في قول النبي ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[١].

- أكبر، وهو نفاق العقيدة، وهو المراد في الآية الكريمة، وهو أشنع من الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾[٢].

و"مَرَدُوا۟"، مرد، يمرد، مرودا، هو أن يبلغ الغاية التي تخرج من جملة ما عليه ذلك الصنف، وأصله من قولهم: شجر أمرد: إذا تعرى من الورق، ومرد على النفاق؛ أي: مرنه واستمرأه، وصارت له فيه دُرْبة، فكأنه تجرد له من كل خير[٣].

والخطاب في الآية للنبي ﷺ، وأشرك معه في بعضها أمته ﷺ [٤]، والواو في: "وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ"، يجوز فيها وجهان[٥]:

- أن تكون عاطفة، وتقدير الكلام: وممن حولكم من الأعراب منافقون مردوا على النفاق، ومن أهل المدينة كذلك، فجملة "مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ " وصف لـ" مُنَٰفِقُونَ"، فصل بينهما بـ"وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ"، أو التقدير: وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون مردون على النفاق.

وعلى هذين التقديرين، فإن المرود على النفاق وصف تحقق من بعض الأعراب وبعض أهل المدينة.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه (٢٧/١)، كتاب: الإيمان، باب: علامة المنافق، حديث رقم: (٣٣)، ومسلم في صحيحه (٧٨/١)، كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال المنافق، حديث رقم: (٥٩)، عن أبي هريرة ﷺ، واللفظ لهما.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٥.

(٣) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (٣٣١/٩)، والمفردات في غريب القرآن ص(٧٦٤)، ولسان العرب (٤٠٠/٣).

(٤) المحرر الوجيز (٧٥/٣).

(٥) إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس (١٣٢/٢)، والكشاف (٣٠٥/٢)، والتبيان في إعراب القرآن (٦٥٧/٢)، والدر المصون (١١١/٦)، وإعراب القرآن وبيانه (٢٧١/٣).

قلت: وهو الأنسب بترتيب الجزاء عليه، فإن الجزاء المذكور في الآية يشمل الفريقين، وذلك يقتضي أنهما مردا على النفاق.

- وأن تكون استئنافية، و"وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ" خبر لمبتدأ محذوف، وتقدير الكلام: ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق، على تقدير حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه.

وعلى هذا التوجيه، فإن نفاق بعض الأعراب ظاهر، أما نفاق بعض أهل المدينة فخفي؛ لدربتهم فيه وطول ممارستهم له.

قلت: وهو الأنسب بحالهم؛ أي: بحال المنافقين بالمدينة، فقد كان لهم مزيد معرفة وكثير اطلاع بأحوال النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين، فعرفوا كيف يدارونهم ويتظاهرون بأنهم منهم، وما هم منهم، وذلك مما لم يتهيأ للأعراب، فكان الذم ألصق بهم وألزم إليهم.

فقوله: "وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ" فيه عدول عن المضمر إلى الظاهر، وكان المقتضى أن يقال: "ومنكم"، كما قال في مطلع الآية: "وَمِمَّنْ حَوْلَكُم " لأنه قُصِدِ به مذمتهم، فقد تهيأ لهم من الأنوار النبوية وأسباب الهداية ما لم يتهيأ للأعراب، فقربهم من مهبط الوحي ما زادهم ذلك إلا بُعْدا عن الحق[١]، وفي هذا زيادة تقبيح لهم وتحقير لشأنهم.

وفي الآية إشارة إلى أن المنافقين قسمان:

- منافقون ظاهرو النفاق، فيبدو نفاقهم من صفاتهم التي ذكرها الله في السورة الكريمة وغيرها.

- منافقون مردوا على النفاق، واستمرأوه وتمرسوا فيه، حتى خفى حالهم على أكثر الناس فراسة وأشدهم فطنة، وهو النبي المصطفى ﷺ، وهؤلاء أشد خطرا، وأكثر ضراوة على الأمة.

وقوله تعالى: "لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ"

خطاب للنبي ﷺ لتقرير ما سبق من شدة مكرهم وطول تمرسهم في النفاق، فقد بلغوا فيه منزلة تخفى عليك -أيها النبي- مع شدة فراستك وقوة

---

(١) حاشية القونوي (٣٢٤/٧).

خاطرك، فقد كان ﷺ يعرف منهم بادي النفاق، كما قال جل شأنه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾[١].

وإذا كان النبي ﷺ لا يعلمهم، فإن الله الذي لا يخفى شيء يعلم مكنون صدورهم، وما يتناجون به بينهم، ومن ينافقونهم، فقال: "نَحْنُ نَعْلَمُهُمْۚ" فقد بُنيَ الكلام على الجملة الاسمية المصدَّر بضمير العظمة "□"، وأُسنِدِ إلى ضمير العظمة؛ لبناء الجزاء على علمه تعالى بأفعالهم، وأنه جزاء عدل، مع ما فيه من قصر العلم بحالهم على الله وحده.

ومما يبرز سوء نيتهم وخبث مقصدهم تفننهم في إخفاء حقيقتهم على النبي ﷺ والمؤمنين حتى يأمنوا لهم؛ فيعرفوا أسرار المؤمنين وأحوالهم، لكنها لا تخفى على علام الغيوب –سبحانه– الذي يعلم السر وأخفى؛ وقد ظهر ذلك جليا من خلال طباق السلب" لا تعلمهم نحن نعلمهم".

قوله تعالى: "سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ"

بيان للجزاء المومأ إليه بقوله: "نَحْنُ نَعْلَمُهُمْۚ"، وهو جزاء لهم في الدنيا والآخرة.

أما جزاء الدنيا فهو المراد بقوله: "سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ"، فالسين للاستقبال، وذلك يقتضي وقوعه بهم في الدنيا، والمراد بالتثنية التكثير، نحو لفظ " كَرَّتَيْنِ " في قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾[٢]، فليس المراد بالعدد حقيقته، بل المراد به التكثير، فهم سيعذبون بأنواع العذاب النفسي والبدني، نحو فضيحتهم، وخيبة سعيهم، وفساد مكرهم، وغيظ قلوبهم بعلو كلمة الإسلام وظهور أمره، ونهك أبدانهم بعبادات لا ثواب لهم فيها، وخروجهم مع النبي ﷺ والمؤمنين لقتال أوليائهم، وإقامة الحدود

---

(١) سورة محمد، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الملك، من الآيتين: ٣، ٤.

عليهم...إلخ يقول أبو السعود: «ولعل تكرير عذابهم لما فيهم من الكفر المشفوع بالنفاق، أو النفاق المؤكد بالتمرد فيه»[١].

وأما جزاء الآخرة، فهو المراد بقوله: "ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ"، فـ"ثُمَّ" الموضوعة للترتيب والتراخي أفادت أن هذا العذاب يكون في الآخرة، وأن البون بين العذابين شاسع، فمهما بلغ عذاب الدنيا من الشدة، فلن يقارن به عذاب الآخرة. والتعبير بـ" يُرَدُّونَ" يفيد معنى الإكراه لعدم الرغبة فيه، كما أن فيه إشارة إلى استمرار عذابهم حيث يردون من عذاب إلى عذاب.

وتنكير "عَذَابٍ" عذاب ووصفه بـ"عَظِيمٍ"، مبالغة في الوعيد الأخروي لهم؛ يتناسب مع عظم جرمهم، وشدة خيانتهم ومكرهم؛ ولذلك استحقوا عذابا بل عذابين في الدنيا مشفوعين بعذاب عظيم في الآخرة.

وإنما استحق مردة المنافقين هذا الجزاء القاسي؛ لأنهم بؤرةُ إفسادٍ في الأرض وإضلالٍ للعباد وإضعاف لشوكة الأمة، ومطمعُ أعدائها أن ينالوا منها بمكرهم؛ أي: مكر المنافقين، ما لم ينالوه بسيوفهم، يقول ابن القيم: «إن بلية الإسلام بهم شديدة جدا؛ لأنهم منسوبون إليه وإلى نصرته وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة، يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد.

فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه؟! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه؟! وكم من علم له قد طمسوه؟ ! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه؟! وكم ضربوا بمعاول الشبه في أصول غراسه ليقلعوها؟! وكم عموا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها؟.

فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية، ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية، ويزعمون أنهم بذلك مصلحون ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢﴾[٢]»[٣].

---

(١) إرشاد العقل السليم (٤/٩٨).

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢.

(٣) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية (١/٣٥٥).

المطلب التاسع: العذاب العظيم لمن كفر بالله تعالى بعد إيمانه.

قال الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩﴾[١].

السياق العام والخاص للآيات الكريمة.

الآيات الكريمة وردت في سورة النحل، وهي سورة مكية[٢]، عُنيت –كغيرها من سائر السور المكية– بالأمور العقدية، وأصول المعاملات، لا سيما إفراد الله تعالى بالعبودية، وإقامةِ الحجة على المنكرين لاستحقاقه لها، وإبطال افتراءاتهم، وكشف سعيهم الدؤوب لصدهم الناس عن دين الله، مع ما اقتضاه من تهديدهم ووعيدهم بأشد أنواع العذاب لزجرهم عن باطلهم.

وتأتي هذه الآيات الكريمة تمثل حلقة من حلقات السورة المترابطة، فتحكي صورةً من صور الصراع بين الإيمان والكفر، وهو سعي المشركين في صد الناس عن الحق، تارة بإثارة الشبهات والافتراء على الله ورسوله ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ١٠٢ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ١٠٣﴾[٣].

---

(١) سورة النحل، الآيات: ١٠٦: ١٠٩.

(٢) القول بأن السورة كلها مكية هو قول جمهور العلماء، وقيل: إلا ثلاث آيات آخرها نزلت في شأن مقتل عم رسول الله ﷺ حمزة يوم أحد (التحرير والتنوير (١٤/٩٣).

(٣) سورة النحل، الآيات: ١٠١: ١٠٣.

وتارة بإكراه من أسلم منهم على الكفر أو إغرائهم ليرتدوا عنه، وهو المراد بهذه الآيات، فجاءت مبيِّنة كيدهم، ومحذرة إياهم من حلول غضب الله وعذابه بهم، مستدركة حكم المكره على الكفر بأنه لا يناله شيء من هذا الوعيد.

سبب نزول الآيات.

عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار عن أبيه قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي وذكر آلهتهم بخير ثم تركوه فلما أتى النبي ﷺ قال: «ما وراءك شيء؟» قال: شر، ما تُركتُ حتى نلتُ منك وذَكرتُ آلهتَهم بخير قال: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئن بالإيمان قال: «إن عادوا فعد»، فنزلت: "إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ"[1].

التفسير والبيان

بينت الآيات الكريمة سببا من أسباب استحقاق العذاب العظيم يوم القيامة، وهو الردة عن الإيمان بعد أن استقر في القلب وخالطته بشاشته ، فاستحب الدنيا على الآخرة، وأعرض عن الحق بعد إذ عرفه، واتبع هواه فأضله الله وختم على قلبه وسمعه وبصره، فناسبه ذلك الجزاء، وهو الغضب الشديد والعذاب العظيم، وقد تناسقت عبارات الآيات بما تكشف مناسبة الجزاء لتلك الجريمة النكراء، كما يتضح فيما يلي:

قوله تعالى: "مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ".

المراد بـ"مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ..." مقيس بن صبابة، والحارث بن ربيعة بن الأسود، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وعلي بن أمية بن خلف، والعاصي بن منبه بن الحجاج، وأشباههم ممن كان آمن برسول الله ﷺ، ثم ارتد[2].

---

(١) صحيح: أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٣٠٤)، والحاكم في المستدرك (٣٨٩/٢)، كتاب: التفسير- تفسير سورة النحل، حديث رقم (٣٣٦٢)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي في التلخيص.

(٢) المحرر الوجيز (٤٢٢/٣)، التحرير والتنوير (٢٩٢/١٤).

والجملة استئناف ابتدائي، تبين صورة من صور صد المشركين الناس عن دين الله، وهي محاولتهم الدؤوبة لحمل المؤمنين على الكفر بشتى الأساليب، فتارة بالإغراء، وأخرى بالسوط والقهر.

وهو مظهرٌ من مظاهر الصراع بين الإيمان والكفر، فالإيمان يغزو القلوب ويعمرها، والشرك يحول الناس عنه، فحذر اللَّه تعالى المؤمنين من أن يرتدوا بعد إيمان ببيان عاقبة ردتهم وكفرهم بعد الإيمان.

والكفر بالله يكون بقول أو فعل شيء يدل على الجحود والنكران، كأن يقول قولا يفتري به الكذب على الله ورسوله، أو يسجد لغير الله، فيدل ظاهره من القول أو الفعل على ما في قلبه.

و"مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ" يدل على ثبات الإيمان في قلوبهم، وقناعتهم بهم، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ١٣٧﴾[1]، فالعطف بـ"ثُمَّ" دل على استقرار الإيمان في قلوبهم مدة من الزمان.

فالكفر بعد الإيمان ومخالطة بشاشته قلبه والقناعة به دليل على عِظَم قُبْحه وبشاعته وهو ما يستوجب أشد العقاب وأخزاه.

قوله تعالى: "إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ"

استثناء منقطع؛ لأن المكره على الكفر مع ثبات قلبه على الإيمان ليس بكافر[2]، ولا يقتضي ما اقتضته الآية من غضب شديد وعذاب عظيم.

والإكراه: هو الإلزام والإجبار على ما يكره الإنسان، طبعًا أو شرعًا، فيقدم على عدم الرضا، ليرفع ما هو أضر[3].

والاطمئنان: ثبات القلب على ما كان عليه من الاعتقاد الجازم، وسكونه له[4].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٧.

(٢) الجدول في إعراب القرآن (٧/٣٩٤)، وزهرة التفاسير (٨/٤٢٧٦).

(٣) التعريفات ص(٣٣).

(٤) حاشية القونوي (١١/٣٩٢).

المعنى: من أُجبر واضطر إلى نطق كلمةٍ أو فعل شيء يقتضي الكفـــر، وقلبه ثابت على ما اعتقده من الإيمان بالله، فلا يناله شـــيء مـــن العـــذاب، والمراد بها عمار بن ياسر ومن كان على شاكلته كما سبق في سبب النزول.

قوله تعالى: "وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا".

استدراك على حكم المكرَه؛ لأنه ربما تُوهِّم بأن الإكراه لا يقتضي العذاب مطلقا، فبين أن المكره إن كان قد شرح بالكفر صدره، فمستحق للعذاب، ولا يدخل في حكم المكره المذكور، فهو استدراك مؤكِّد لمفهوم قولـــه: "مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ".

والشرح: البسط، فشرح الصدر بالإيمان؛ أي: بسطه بنور إلهي وسكينة وروح منه تعالى[(١)]، وشرح صدره بالكفر؛ أي: رضي به وانبسط إليه.

والمراد بـــ"صَدۡرٗا": القلب؛ إذ هو محل الإيمان ومعقله، وهو منصـــوب على التمييز، وأصل الكلام: من شرح بالكفر صدره، وقد أفاد هذا التركيـــب المبالغة في انشراح القلب بالكفر، واكتناف الكفر لكل أركانه حتى تعداه إلـــى الصدر نفسه، وذلك كما في قوله تعالى على لسان سيدنا موســـى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥﴾، وتآزر معه تنكير "صَدۡرٗا" لإفـــادة العمـــوم والشمول، فخُيِّل للسامع أن القلب كله قد امتلأ بالكفر، حتى فاض فامتلأ بـــه الصدر.

والمعنى: من رجع إلى الكفر من بعد استقرار الإيمان في قلبه، وانبسط إليه مختارا، وطابت نفسه به، فجزاؤه كذا وكذا مما ذُكِر.

قوله تعالى: "فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ"

بيان لجزاء المرتدين الذين شرحوا بالكفر صدرهم، وقد ذكـــر الله لهـــم جزاءين:

الأول: حلول الغضب بهم، ليجانس فعلتهم الشـــنعاء؛ إذ كانـــت ردتهـــم إرضاء لسادتهم وكبرائهم، فحل محلها غضب الله عليهم، وشتان بين رضاه -جل شأنه- الذي يجب أن يرجى، ويبذل في سبيله مهج القلـــوب والأرواح،

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص(٤٤٩)، مادة: شرح.

وبين رضا أعدائه من المشركين الذي لا يجنى من ورائه إلا الخسران الأبدي.

وجاء التعبير عنه بالجملة الاسمية؛ لإفادة الدوام والاستمرار، وعُبِّر عنه بالنكرة "غَضَبٌ" لبيان شدته، ووُصِف بأنه "مِّنَ ٱللَّهِ"، فهو غضب لا يطاق ولا تُتحمل عواقبُه، وفي التعبير بـ"فَعَلَيۡهِمۡ" إشعار باستيلاء الغضب عليهم، وتمكنه منهم، وشموله لهم فلا يستطيعون الفكاك منه ولا من عواقبه تناسبا مع سوء فعلهم وارتدادهم عن الهدى إلى الضلال.

الثاني: العذاب العظيم، وقد جاء التعبير عنه بالنكرة "عَذَابٌ" ليبين فظاعته وشدة هوله، ووصف بكونه عظيما؛ ليجانس عِظَم جرمهم، لأنهم بعد أن اهتدوا للإيمان، وخالطت بشاشته قلوبهم، وعرفوا أنه الحق، انقلبوا على وجهوهم منتكسين، فاستحقوا ذلك الجزاء.

قوله تعالى: "ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ"

بيان للأسباب التي حملتهم على الكفر بعد الإيمان، أو التي استوجبت حلول الغضب بهم وردهم إلى العذاب العظيم، فاسم الإشارة "ذَٰلِكَ" يحتمل عوده إلى أحد أمرين:

الأول: الردة، المفهومة من قوله تعالى: "مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ"، وما بعدها بيان لسببها؛ أي: أنهم ارتدوا عن الإيمان وشرحوا بالكفر صدورهم بسبب إيثارهم الدنيا على الآخرة، وعدم هداية الله لهم.

الثاني: حلول الغضب واستحقاق العذاب العظيم، وما بعدها بيان لسببه[١].

والأول هو الأرجح عندي؛ لأن الكلام سيق لبيان حال المرتدين وكشف أسباب انتكاسهم عن الإيمان؛ تحذيرا عن السلوك مسلكهم.

وعلى كلا التقديرين، فإنهم قد وُصِفوا بأمرين:

---

(١) تفسير البيضاوي (٣/٢٤٢)، وإرشاد العقل السليم (٥/١٤٣).

الأول: أنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة، واختاروا ما يفنى على ما يبقى، وقد عبر عن ذلك بقوله: "ٱسۡتَحَبُّواْ"؛ أي: أحبوا حبا عظيما[١] وتعديته بـ"عَلَى" لتضمنه معنى الإيثار، ففي بناء الفعل على الاستفعال، وتضمنه معنى الإيثار يدل على شدة تعلق قلوبهم بالدنيا.

ووصْفُ ما آثروه بأنه حياة حيث قال: "ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا" تهكمٌ بهم؛ إذ الحياةُ الحقيقة لا تكون إلا فيما ارتدوا عنه من الإيمان، لقوله سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾[٢]، فـ"الموت" مجاز في الكفر، و"الحياة" مجاز في الإيمان.

الثاني: أن الله ما هداهم إلى الرشد، بل أضلهم، وإضلاله تعالى لهم جارٍ على سنته في خلقه، فإن الله لا يضل عبدا إلا باختياره الضلالة على الهدى، لقوله جل شأنه: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴿١٨﴾﴾[٣]، وقوله جل وعلا: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾[٤].

فقوله: "وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ" تضمن وصفهم بالسعي بالفساد في الأرض بشتى صوره؛ إذ ذاك هو السبب في عدم هداية الله لهم.

قوله تعالى: "أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡ".

وصف آخر للمرتدين بأنهم أبوا إدراك الحق والتأمل فيما هم فيه من الضلالة[٥]؛ وذلك لأن الله طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم بسبب كثرة معاصيهم وتجرؤهم على الله، فصاروا منشرحي الصدور بكفرهم.

---

(١) نظم الدرر (١١/٢٦٠).

(٢) سورة الأنعام، من الآية: ١٢٢.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٨.

(٤) سورة الصف، من الآية: ٥.

(٥) تفسير البيضاوي (٣/٢٤٢).

وقد أشير إليهم باسم الإشارة الموضوع للبعيد "أُوْلَـٰٓئِكَ" إشـــارة إلـــى بعدهم في الضلال، وتنبيهاً على أنهم جديرون بما ذُكِر من الطبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم بسبب ضلالهم.

قوله تعالى: "وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ".

وصف آخر لهم، وهو وصفهم بالغفلة، وهي في الأصل: سهو يعتـــري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ[1]، والمراد بها هنا: ترك ما ينبغي التنبه إليه وأخذ الحيطة فيه من الثبات على الإيمان وعدم الارتداد عنه. فهم ما تنبّهوا لما حاكه لهم أعداؤهم من كيد وأرادوه بهم من شر.

وقد جاء التعبير بأسلوب القصر مبالغة في وصفهم بها؛ إذ لا غفلة أشد خطرا من غفلة تأخذ بصاحبها من النجاة إلى الهلكـــة، ومـــن الفـــوز إلـــى الخسران.

قوله تعالى: "لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ".

وصف آخر لهم بأنهم الخاسرون للنعيم الأبدي السرمدي، فإنهم إن نالوا شيئا من متع الدنيا التي استحبوها وارتدوا عن الحق لأجلها قد خسروا في الآخرة الخسران المبين، يقول الرازي: «واعلم أن الموجب لهذا الخسران هو أن الله –تعالى– وصفهم في الآيات المتقدمة بصفات ستة:

الصفة الأولى: أنهم استوجبوا غضب الله.

والصفة الثانية: أنهم استحقوا العذاب الأليم.

والصفة الثالثة: أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة.

والصفة الرابعة: أنه تعالى حرمهم من الهداية.

والصفة الخامسة: أنه تعالى طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم.

والصفة السادسة: أنه جعلهم من الغافلين عما يراد بهم من العذاب الشديد يوم القيامة فلا جرم لا يسعون»[2].

* * *

(١) المفردات في غريب القرآن ص(٦٠٩)، مادة: غفل.

(٢) التفسير الكبير (٢٧٦/٢٠).

المطلب العاشر: العذاب العظيم لمن قذف المحصنات المؤمنات.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ٢٥﴾[١].

السياق العام والخاص للآيات.

وردت هذه الآيات الكريمة في سورة النور، وهي سورة مدنية، عُنِيت بتشريع الحكام التي تحفظ استقرار المجتمع، وتقوي أركانه.

وإن هدم المجتمعات وإضعاف شوكتها وزعزعة أمنها واستقرارها إنما يكون بشيوع الفاحشة فيها فعلا بالسفور والزنا، وقولاً بالقذف به وشيوع الحديث عنه، فجاءت السورة الكريمة بأحكام العفاف والستر[٢] التي تحفظها مما يهددها من تلك المخاطر، مقترنة بالتهديد الشديد والوعيد الشديد الأكيد لمن تجاوز تلك الأحكام.

وقد اتسقت هذه الآيات مع السياق العام للسورة الكريمة فشرعت من الأحكام ما يصون المجتمع من قالة السوء، وكذلك السياق الخاص لما قبلها وما بعدها، فجاءت في سياق الحديث عن قذف المنافقين للطاهرة المطهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بما ليست له أهلاً في حادثة قد هزت أركان المجتمع الإسلامي وزعزعت استقراره حتى رُفِعت السيوف في المسجد النبوي لولا رسول الله ﷺ الذي أخمد لهيب تلك الفتنة.

فكشفت الآيات كذبهم، وتوعدتهم على جرمهم بأبلغ العبارات وأزجر ما جاء في القرآن الكريم من وعيد؛ بيانا لمكانة آل بيت النبي ﷺ، وصيانة لهن أن يؤذين بمثل ما أوذيت به عائشة رضي الله عنها، بل وصيانة لكل امرأة مؤمنة محصنة.

التفسير والبيان.

نزلت هذه الآيات في سبع عشرة آية في حادثة الإفك، وقد اشتملت على أشد الوعيد وآكده لهؤلاء الذين قذفوا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها

---

(١) سورة النور، الآيات: ٢٣: ٢٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٢/١٥٨).

بالفاحشة، يقول الزمخشري: «لو فليت القرآن كله وفتشت عما أوعد به من العصاة لم تر الله –تعالى– قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضوان الله عليها، ولا أُنزِل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعتاب البليغ والزجر العنيف واستعظام ما ركب من ذلك واستفظاع ما أقدم عليه ما أنزل فيه على طرق مختلفة وأساليب مفتنة، كل واحد منها كافٍ في بابه، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها»[١].

وقد تآزرت عبارات الآية الكريمة في بيان استحقاقهم هذا الوعيد الشديد في الدنيا والآخرة، وذلك لشناعة ما اقترفوه وسوء ما صنعوه، ويتضح ذلك من خلال الوقوف مع الآيات الكريمة:

قوله تعالى: "إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ "

"يَرۡمُونَ"، من الرمي، وهو: إلقاء الشيء، يقال: رمى الشيء، ورمى بالشيء؛ أي: ألقاه، وهو يقال في الأعيان وفي المعاني[٢]، والمراد به في الآية القذف بالزنا خاصة، فمن رمى بغير الزنا، فلا يترتب عليه تلك الأحكام وإن حرُم، ولم يصرح به في الآية لكونه معلوما من السياق؛ فإن الآيات من أول السورة تدور حوله وما يتعلق به، ولصون اللسان عن ذكره لقبح تصوره، واستعير لفظ الرمي له خاصة لشدة إيلامه في حق المرمي.

و"ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ "، من الإحصان، وأصله التحرز، يقال: حصن القرية، وأحصنها، إذا بنى حولها حصنا؛ أي: سورا، يمنعها من العدو، ويقال للرجل إذا تزوج: محصن؛ لأن الزواج يعفه ويمنعه عن الفاحشة، فكأنه تحصن به وكذلك إذا عفَّ عنها لدينه أو مروءته، فكأنه في حصن يمنعه عنها، ويقال

---

(١) الكشاف (٢٢٣/٣).

(٢) الصحاح (٢٣٦٢/٦)، والمفردات في غريب القرآن ص(٣٦٦)، وتاج العروس (١٨١/٣٨)، مادة: رمى.

للمرأة محصنة[1]، وقد أجمع العلماء على أن المراد بها في الآية العفائف، سواءً كن متزوجات أو غير متزوجات.

و"ٱلۡغَٰفِلَٰتِ"، جمع غافلة، يقال: غفلتُ عن الشيء؛ أي: تركتُه سهواً، غفلتُ الشيء؛ أي: تركته عمدا، ويقال لكل ما لا مَعْلم له: "غُفْلٌ"، فيقال للأرض التي لم تمطر: غُفْل"، وللرجل الذي لم تجربه الأمور: "غُفلٌ"[2]، وامرأة غافلة؛ أي: لم تجربها الأمور، ولم تفطن لما تفطن له المجرِّباتُ من النساء، وهو كناية عن نقاء القلب، وسلامة الصدر، والبعد عن الدهاء والمكر، فلم تقع في فاحشة، ولم تخطر لها على بال.

والمراد به في الآية: الْغافِلات عما رُمين بهً من الزنا؛ إذ لم يخطر ببالهن، فضلا عن إلمامهن به ووقوعهن فيه؛ لكونهن مطبوعات على الخير[3].

والجمع بين هذين الوصفين –وإن كان أحدهما كافيا في البعد عن الريبة– للترقي في وصفهن، أي: أنهن عفيفات، بل لم تخطر الفاحشة ببالهن أصلا، ففي الوصف بالغفلة من كمال التنزه عن الفاحشة ما ليس في الوصف بالإحصان.

و"ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ"؛ أي: الكاملات الإيمان، حيث جمعن بين التصديق بالقلب، والعمل بالجوارح، المصدقات بالله ورسوله، الممتثلات أمره، والمجتنبات نهيه، وهو وصف وازع عن الفاحشة، وحامل على العفة والغفلة، فلم تكن عفتهن وغفلتهن بسبب ضعف عقولهن، وإنما كان بسبب إيمانهن.

وتلك صفات إذا اجتمعت في واحدة فهي أبعد ما تكون عن التهمة وقالة السوء، ومن ثَمَّ رتب الله عليه أشد العقاب في الدنيا والآخرة، فقال: "لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ "

(١) الصحاح (٢١٠١/٥)، ومعجم مقاييس اللغة (٦٩/٢)، والمفردات في غريب القرآن ص(٢٣٩)، مادة: حصن.

(٢) الصحاح (١٧٨٢/٥)، والمفردات في غريب القرآن ص(٦٠٩)، ولسان العرب (٤٩٧/١١)، مادة: غفل.

(٣) حاشية القونوي (٣٠٦/١٣)، وحاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، للخفاجي (٣١/٧).

واللعن هو: الطرد على سبيل السخط، وهو من الله: طرد من رحمته تعالى، فلا يوفقهم لخير في الدنيا، ولا يشملهم برحمةٍ ولا يكلمهم ولا ينظر إليهم في الآخرة، ومن الخلق: السب والدعاء بالسخط والانتقام[١]، فهو لعن أبدي يعمهم في الدنيا والآخرة.

وبناء الفعل "لُعِنُواْ" لما لم يُسم فاعله؛ ليعم كل من يتأتى منه اللعن[٢]، فيلعنهم الله، وتلعنهم الملائكة، ويلعنهم الناس، ويلعنهم الحجر والشجر.

"وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ " هو عذاب أخروي، نؤمن به ونفوض حقيقته إلى الله وحده، مع الجزم بأنه عذاب لا يقادر قدره، ولا يمكن لعقلٍ إدراك كنهه، ولا لخيال تصوره، فالتنوين في "عَذَابٌ" أفاد التهويل والتفخيم، ووُصِف بأنه "عَظِيمٌ"، وذلك ليجانس عِظَم ذنبهم وشناعة فعلهم.

وإنما كان هذا العذاب أخرويا لتعلق الظرف "يَوۡمَ" في قوله: "يَوۡمَ تَشۡهَدُ ..."، بما تعلق به الجار والمجرور في "وَلَهُمۡ" من الاستقرار المحذوف، وتقدير الكلام: استقر لهم عذاب عظيم في يومٍ تشهد...إلخ،

وقيل: متعلق بــ" عَذَابٌ "، وتقدير الكلام: يُعَذبون يومَ تشهد عليهم .... إلخ [٣].

وعلى كلا التقديرين، فإن جملة "يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ"، جملة مبينة وقت وقوع العذاب العظيم بهم، ومقررة له.

والشهادة: قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر[٤]، ولا أقرب للنفس من جوارحها، فهي حاضرة ومعاينة لما يقع منها. و"عَلَيۡهِمۡ " لبيان أن تلك الشهادة ضارة لهم.

والظاهر أن شهادة الجوارح شهادة حقيقية بأن يُقدرَها الله تعالى على النطق، فتنطق بما شاهدت من قبائح أعمالهم ومناكير أقوالهم، كما قال

---

(١) لسان العرب (٣٨٧/١٣)، وتاج العروس (١١٨/٣٦)، مادة: لعن.

(٢) نظم الدرر (٢٤١/١٣).

(٣) المحرر الوجيز (١٧٤/٤)، والبحر المحيط (٢٦/٦)

(٤) المفردات في غريب القرآن ص(٤٦٥).

سبحانه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥﴾[١]، فتنطق الجوارح بالحق الذي يريد صاحبه إخفاءه؛ لأنها فاضحة، ومردية له في العذاب العظيم، كما قال جل شأنه: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[٢].

والمقصود بتلك الشهادة فضحهم وبيان كذبهم الذي استمرأوه في الدنيا والآخرة، يقول ابن عطية: «ذلك من أعظم الخزي والتنكيل، فيشهد اللسان وقلب المنافق لا يريد ما يشهد به»[٣].

قوله تعالى: "يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ".

الدين: أصله الانقياد والذل، يقال: دان له، إذا انقاد وأطاع[٤]، والمراد به في الآية الحساب والجزاء، وأطلق عليه دينا لما فيه من معنى الذل للعاصين.

والمعنى: أنه في هذا اليوم الذي تشهد فيه عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بأعمالهم القبيحة وأقوالهم المنكرة يوفيهم الله الجزاء العادل على أعمالهم، فيدخلهم عذابا لا يستطيعون دفعه، ويوقنون حينئذٍ بأن الله هو الحقُّ في ذاته، فلا يَظْلِم، المبين الذي كشف سرائر أفعالهم ومكنونات صدورهم.

فقد اجتمعت في الآيات السابقة من صور العذاب أعظمه وأخزاه ما هو أنسب بعذاب الكافرين منه بعصاة المؤمنين، ومن ثَمَّ ذهب الكثير من المفسرين إلى كفر من رمى المحصنات الغافلات المؤمنات، ومات ولم يتب من ذنبه، مخصِّصِين الآية الكريمة برماة أم المؤمنين عائشة رضي الله

---

(١) سورة يس، الآية: ٦٥.

(٢) سورة فصلت، من الآية: ٢١.

(٣) المحرر الوجيز (١٧٤/٤).

(٤) مقاييس اللغة (٣١٩/٢)، مادة: دين.

عنها؛ لورود الآيات فيها؛ وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما[١] وسعيد بن جبير ومقاتل بن حيان[٢].

فإن قلتَ: إن كان المراد بـ"ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ" عائشة رضي الله عنها، فما وجه الجمع في الآية؟

فالجوابُ: أن الجمع في الآية باعتبار أنَّ رميها رمْيٌ لسائر أزواجه ﷺ، فمن تجرأ على رميها مع مكانتها عند النبي ﷺ وفضلها، فهو على رمْي غيرها من سائر نسائه ﷺ أشد جرأة، ولاشتراكهن جمعاء في العفة والنزاهة.

ومن المفسرين من حمل الجمع على أن المراد به سائر أزواج النبي رضي الله عنهن؛ لأن إيذاءهن ليس كإيذاء سائر المؤمنات؛ وهو مروي عن الضحاك[٣]، وأبي الجوزاء[٤]، ورواية عن ابن عباس رضي الله عنهما[٥]. يقول الآلوسي: «وعندي أن حكم رمي بنات النبي عليه الصلاة والسلام كذلك، لا سيما بضعته الطاهرة الكريمة فاطمة الزهراء صلى الله تعالى على أبيها وعليها وسلم، ولم أر من تعرض لذلك، فتدبر»[٦].

---

(١) الأثر: أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم (٢٥٥٦/٨)، والحاكم في المستدرك (١١/٤)، كتاب: معرفة الصحابة ﷺ- ذكر الصحابيات من أزواج رسول الله ﷺ وغيرهن رضي الله عنهن، حديث رقم (٦٧٣١)، وقال: "صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي. وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٦٤/٦)، وزاد عزوه إلى ابن مردويه.

(٢) الأثر: أخرجه الطبري في جامع البيان (١٣٨/١٩)، والطبراني في المعجم الكبير (١٥١/٢٣)، عائشة بنت أبي بكر الصديق زوج رسول الله ﷺ- باب تأويل قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾، وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٦٤/٦)، وزاد عزوه إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) الأثر: أخرجه الطبري في جامع البيان (١٣٨/١٩)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٦٤/٦)، وزاد عزوه إلى عبد بن حميد.

(٤) الأثر: أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم (٢٥٥٦/٨).

(٥) الأثر: أخرجه الطبري في جامع البيان (١٣٩/١٩).

(٦) روح المعاني (٣٢٤/٩).

ومن المفسرين من حمل القذف مستحلا له، واستحلال ما حرم الله كفر؛ وهو ما ذهب إليه البيضاوي[١].

ومذهب الأصوليين -وهو الراجح عندي- أن هذا الوعيد يشمل كل من قذف من كانت هذه صفتها، فيدخل فيه قذفةُ عائشة رضي الله عنها، وهو المروي عن ابن زيد[٢]، وذهب إليه كثير من المفسرين[٣].

ويدخل في الآية أيضا من قذف رجلاً هذه صفته أيضا؛ قياسا للرجل على المرأة، أو استدلالا؛ كما ذهب إليه النحاس متأولا المحصنات بـ"الأنفس المحصنات"[٤]، فيشمل النصُّ الرجال والنساء.

وبناء على هذا المذهب فإن رمي غير أمهات المؤمنين كبيرة لا تستوجب الكفر، وما ذكر في الآية من العقاب مما شأنه أن يكون على الكفر، فهو للترهيب والزجر عنه، وأن فاعله يستحق من العقاب ما يستحقه الكافر من العذاب، وإن لم يكفر، ما لم يتب توبة نصوحا، أما رمي أمهات المؤمنين بعد نزول هذه الآيات فإنه كفر؛ لأنه تكذيب لصريح القرآن الكريم.

وإنما استحق هذا القاذف اللعن في الدارين، والعذاب العظيم في الآخرة؛ لأن قذف هذا النوع من النساء، وهو المحصنات الغافلات المؤمنات، لا شك في افترائه، لكونهن أبعد ما يكون عن بالفاحشة، وناهيك عما في ذلك من العدوان، وإشاعة الفاحشة، وإثارة القيل والقال، بخلاف آية القذف، وهي قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً﴾[٥]، فإن القاذف ربما يكون محقا، وإنما وجب عليه الحد؛ لأنه لم لم يقم على دعواه الشهادة.

* * *

---

(١) روح المعاني (٩/٣٢٤).

(٢) الأثر: أخرجه الطبري في جامع البيان (١٩/١٣٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/٣١)، والبحر المحيط في التفسير (٨/ ٢٥)، ونظم الدرر (١٣/٢٤١)، وزهرة التفاسير (١٠/٥١٧٠)، التحرير والتنوير (١٨/١٩٣).

(٤) إعراب القرآن لأبي جعفر النَّحَّاس (٣/٩١).

(٥) سورة النور، من الآية: ٤.

المطلب الحادي عشر: العذاب العظيم لمن افترى على الله الكــــذب.

قـــال الله تعـــالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠﴾[(١)].

السياق العام للآيات الكريمة.

الآيات الكريمة وردت في سورة الجاثية، وهي ســورة مكيــة باتفــاق العلماء[(٢)]، عُنيت ببيان الأدلة علـــى انفــراد الله تعــالى بــالخلق والتــدبير والتشريع، واستحقاقه سبحانه للعبودية، وموقف الناس منها، وجــزاء كــل فريق ممن أعرض عن الحق بعد وضوح دلائله وسطوع براهينه، أو أذعن .

فبيَّنت هذه الآيات الكريمة جزاءَ من كذبوا بالحق بعد وضــوح دلائلــه وسطوع براهينه، حيث جمع الله لهم بين العذاب الألــيم والعــذاب المهــين والعذاب العظيم في الآخرة، ذلك بأنهم استمرأوا قلْبَ الحقائق وافتراء الكذب على الله تعالى، واقتراف الــذنوب والآثــام، والإصــرار علــى الضــلالة، والاستكبار عن الحق، والاستهزاء به.

التفسير والبيان.

كشفت الآيات الكريمة بعض صفات المكذبين بالحق وبما جاءهم الرسول ﷺ في عبارات تناسقت وتناغمت مع ما أعده الله لهم يوم القيامة من عذاب عظيم، ويتضح ذلك من الوقوف مع الآيات الكريمة:

قوله تعالى: "وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ".

"وَيْلٌ": الويل: الهلاك، وهو دعاء من الله تعالى على من كانت هذه صفته بتسليط المصائب والأحزان والشدائد على الأفاك الأثيم، وإذا كان الدعاء من الله تعالى، فهو محقق الوقوع. وقيل: الويل: اسم واد في جهنم، يسيل فيــه صديد أهل جهنم؛ وهو ما ذهب إليه الطبري والقرطبي[(٣)].

---

(١) سورة الجاثية، الآيات: ٧: ١٠.

(٢) المحرر الوجيز (٥/٧٩).

(٣) جامع البيان (٢٢/٦٣)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٦/١٥٨).

و"أَفَّاكٍ" على وزن "فعَّال"، إحدى صيغ المبالغة؛ أي: كثير الإفك، والإفك: الكذب، ولا يطلق إلا على أفحشه، لتعلقه بالله تعالى، وبرسوله ﷺ، وبدينـــه، وبأوليائه، وأصل الإفك: قلب الشيء وصرفه عن جهته، وسمي الكذب إفكا؛ لأنه مصروف عن وجهه اللائق به، وهو الصدق(١).

و"□" على وزن "فعيل"، بمعنى اسم الفاعل، من صيغ المبالغة؛ أي: كثير الاقتراف للذنوب والمعاصي، فلا يدع وجها منها إلا أتاه.

والتعبير بـــ"لِّكُلِّ" يشمل كل من كانت هذه صفته، ممن نزلت فيهم الآيـــة أو غيرهم، فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في المغيرة بن مخزوم(٢)، وذكر الثعلبي أنها نزلت في أبي جهل وأصحابه(٣).

قوله تعالى: "يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ".

"يَسۡمَعُ" استئناف، أو وصف آخر لـ"أَفَّاكٍ"، أو حـــال منـــه(٤)، أفـــاد أن افتراءهم الكذب واقترافهم للمعاصي وإصرارهم عليها لم يكن عن جهل منهم أو تأويل خاطئ، وإنما كان بعد معرفةِ الحقِّ ووضوح دلائله، فهم يســـمعون آيات القرآن الكريم تتلى عليهم – أي: لا بالإخبار عنها بالغيب–، فلا يلتبس عليهم منها شيء، بل يفهمون معانيها ويقفون على مقاصدها.

وقد كان سماعهم للآيات ووضوح معانيها لهم كافيا في ردعهـــم عـــن غيهم وزجرهم عن ضلالهم؛ إذ المفترض الوقوعِ أن من يعرف الحق ينقـــاد إليه ويذعن له، لكن الواقع أن سماعهم المتجدد لآيات الله بين الحين والحين ما زادهم إلا إعراضا عن الحق أن ينقادوا له، واستكبارا أن يخضـــعوا لـــه، وهذا ما أفاده العطف بـــ"□"، فهي للتراخي الرتبي، فشتان بـــين مفتـــرض

(١) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص(٤٦)، والصحاح (١٥٧٢/٤)، والمفردات في غريب القرآن ص(٧٩)، وحاشية القونوي (٢٧٨/١٣).

(٢) الأثر: ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤٢٣/٧)، وعزاه إلى ابن مردويه.

(٣) الكشف والبيان للثعلبي (٣٥٩/٨).

(٤) الدر المصون (٦٤٢/٩)، وإرشاد العقل السليم (٦٨/٨).

الوقوع والواقع، يقول الزمخشري: «فإن قلتَ: ما معنى "ثم" في قولــه: "□ □ □"؟

قلتُ: كمعناه في قول القائل: يرى غمرات الموت، ثم يزورها(١).

وذلك أن غمرات الموت حقيقة بأن ينجو رائيها بنفسه، ويطلب الفــرار عنها، وأما زيارتها والإقدام على مزاولتها فأمر مستبعد، فمعنى "ثم": الإيذان بأن فعل المقدم عليها بعد ما رآها وعاينها، شــيء يســتبعد فــي العــادات والطباع.

وكذلك آيات الله الواضحة الناطقة بالحق، من تليت عليه وسمعها كــان مستبعدا في العقول إصراره على الضلالة عندها واســتكباره عــن الإيمــان بها»(٢)، ومما يزيد في ذمه ويؤكد قوة استحقاقه للعذاب متعدد الأنواع هنــا إيراد الفعلين: "□"، و"□" مضارعين دلالة على تجدد الإصرار على الإثم مع تجدد سماعه لآيات الله سبحانه.

و"يُصِرُّ"، الإصرار هو: ملازمة الشيء وعدم الانفكاك عنه، من صــررت الصرة: شددتها. يقال: صر الفرس أذنيه، وبأذنيه، وأصرهما: ضمهما إلــى رأسه(٣)، والمراد به هنا تصميمه على الإثم بعد سماع النهي عنه وتقبيحه.

و"مُسْتَكْبِرًا" حال مبينة لصاحبها، فإصراره على إفكه وآثامه لــيس عــن اعتقاد منه بصواب ما هو عليه، ولا تأويل له، بل هو عن أنفة منه وتعالٍ أن يتبع الحق بعد إذ عرفه، وازدراء له، وإعجاب بما هو عليه.

و" كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا " تقرير لما قبلها، فهو لإعراضه عن الحق تعاليا عليه يشبه حاله حال من لم يسمع شيئا من آيات الله، يقول الطاهر ابن عاشــور: «وهذا التشبيه كناية عن وضوح دلالة آيات القرآن بحيث أن مــن يســمعها يصدق بما دلت عليه فلولا إصرارهم واستكبارهم لانتفعوا بها»(٤).

---

(١) البيت لجعفر بن عُلْبَة الحارثي؛ عزاه إليه أبو تمام في ديوان الحماسة ص(١٣)، وصدره:
ولا يكشف الغمَّاء إلاّ ابن حُرَّةٍ.

(٢) الكشاف (٤/ ٢٨٦).

(٣) الصحاح (٢/٧١١)، ولسان العرب (٤/٤٥٢)، وتاج العروس (١٢/٣٠٤)، مادة: صرر.

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/٣٣٢).

وقد رتب الحق -سبحانه- على تلك الصفات العذابَ الأليمَ، فقـال: "فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ"، فالفاء سببية، أفادت ترتيب ما بعدها على ما قبلها، فالإفك، والإثم، والإصرار عليه، والاستكبار عن الحق سبب في هذا العذاب، ولا يخفى ما في التعبير بالبشارة واستعمالها هنا في الشر من عذاب نفسي قاس على المعذب؛ إذ عندما يسمع لفظ البشارة تشرئب نفسه أن ما بعدها سيكون خيرا فإذا به عذاب أليم، وفي هذا استهزاء وزيادة تهكم به يتناسب مع استهزائه بالآيات بعد سماعها وتلاوتها عليه ومع ذلك يصر على الإثم.

قوله تعالى: "وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا"

جريمة أخرى، هي أبشع وأشنع مما سبقها من الجرائم التي ارتكبها ذلك الأفاك، وهي استهزاؤه بآيات الله، فكلما بلغه شيء منها، جعلها مادة للسخرية منها والاستهزاء بها، واتخذها سبيلا للغمز والطعن فيها.

وفي التعبير بالجملة الشرطية "وَإِذَا عَلِمَ..." ما يفيد مبادرته إلى الاستهزاء بالآيات كلما علم شيئا منها من غير فكر ولا روية.

وقد دل التعبير بأداة الشرط "إذا" على تحقق وقوع الاستهزاء وكثرته، بخلاف التعبير بـ"إن" التي تدل على التشكيك والتقليل.

وتنكير "شَيْـًٔا" يفيد التقليل؛ أي: إذا علم شيئا من آيات الله، ولو كان قليلا، فعل كذا وكذا، وهذا تأكيد على فساد طويته، وشدة استهزائه.

والضمير في "ٱتَّخَذَهَا" يعود على "الآيات" لا على "شَيْـًٔا"؛ أي: لم يستهزئ بذلك القدر الذي علمه من الآيات فحسب، بل استهزأ بجميع الآيات التي علمها والتي لم يعلمها[1]، أو على اعتبار أن الاستهزاء ببعضها استهزاء بها جميعا.

وفي التعبير بـ"ٱتَّخَذَهَا" ما يدل على تكلفه الممقوت في جعل آيات الله تعالى مادة للسخرية منها، حيث إن الاتخاذ افتعال من الأخذ، وهو تناول

---

(١) التحرير والتنوير (٣٣٢/٢٥).

الشيء وتحصيله[١]، فقد أُنزلت الآياتُ للهداية والرشاد، فجعلها مادة للسخرية خروج بها عما أُنزلت له.

وقد رتب الحق لهم على هذه الجريمة المذمومة مع ما سبقها من الجرائم عذابا مهينا، فقال: "أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ"، فـ"أُوْلَٰٓئِكَ" اسم إشارة للبعيد إشارة إلى بعد منزلتهم في الشر، جيء به تنبيها على ترتب العذاب المذكور بعدها على ما سبق من الأوصاف السابقة، من الإفك والإثم إلى الاستهزاء بالآيات، فهم أحرياء بذلك العذاب، جديرون به لما فعلوه من تلك الأفاعيل الشنعاء.

قوله تعالى: "مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ".

"مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ"؛ أي: من قُدامهم جهنم، فهم مقبلون عليها، متجهون إليها، فكل حين يمر بهم يقربهم منها، ويمكن حملها على معنى "خلف"، باعتبار أنهم جعلوها خلف ظهورهم، فهم معرضون عنها، فلم يعملوا لها ما يقيهم منها[٢]، فلفظ "وراء" من ألفاظ الأضداد[٣].

والجملة بيان لقوله: "أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ"، فهو قريب منهم مع غفلتهم عنه[٤].

وقوله: "وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا " عطف على "مِّن وَرَآئِهِمۡ"، مبينة لصورة أخرى من صور إهانتهم بهذا العذاب، فإن أشق شيء على النفس أن تعمل العمل ترجو خيره، فلا يغني عنها أدنى غناء؛ أي: لا يدفع عنهم من عذاب الله شيئا.

والمراد بـ"مَّا كَسَبُواْ" أعمال الخير التي فعلوها؛ إذ لا يخلو أحد من فعل الخير، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ

---

(١) الصحاح (٢/٥٥٩)، والمفردات ص(٦٧)، مادة: أخذ.

(٢) روح البيان (٨/٤٣٩)، وروح المعاني (١٣/١٤٢).

(٣) الأضداد في كلام العرب لأبي الطيب الحلبي ص(٢٥٩).

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/٣٣٣).

﴿أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[١].

أو المراد بها أموالهم وأولادهم[٢]، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾﴾[٣].

قوله تعالى: "وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ۖ"

معطوف على ما قبله، مبين لصورة أخرى من صور إهانتهم بالعذاب، حيث كانوا يعبدون الأصنام يرجون شفاعتها، كما قال جل شأنه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾[٤]، ويتبعون طواغيت الشر من الإنس والجن[٥] يزعمون أنهم سيحملون عنهم أوزارهم، كما قال جل وعلا: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾[٦]، وقال جل من قائل: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾﴾[٧]، فخيب الله رجاءهم، وأبطل زعمهم، ونفى عنهم نفعهم أدنى نفع، فقال: ولا يدفع عنهم أولياؤهم شيئا من عذاب الله، وهو من أبرز صور الإهانة والإذلال لهم.

"وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ"؛ أي: لهم فوق ما ذكر من العذاب الأليم والعذاب المهين عذابٌ عظيمٌ، لعظم جرمهم وبشاعة ذنبهم، فقد عبدوا أصناما لا تنفع ولا تضر؛ فنقضوا بذلك عهد الله وميثاقه، واتبعوا طواغيت الشر من الإنس

---

(١) سورة هود، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٢) إرشاد العقل السليم (٨/٦٩)، ومحاسن التأويل (٨/٤٢٧).

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠.

(٤) سورة يونس، من الآية: ١٨.

(٥) محاسن التأويل (٨/٤٢٧).

(٦) سورة إبراهيم، من الآية: ٢١.

(٧) سورة غافر، الآية: ٤٧.

والجن، وعثوا في الأرض بكل صور الفساد، فاستحقوا أفظع العذاب وأعظمه.

يقول أبو منصور الماتريدي: «وعد لهم في كل حال وكل أمر كان منهم عذابًا غير العذاب في حال أخرى؛ ذكر في الحال التي عبدوا الأصنام دونه، واتخذوها أربابًا العذابَ العظيم، وذكر لهم باستهزائهم بآيات اللَّه العذابَ المهين، عذابًا يهينهم، ويهانون في ذلك، وذكر لهم بإصرارهم بما هم عليه واستكبارهم على آيات اللَّه وعلى رسوله العذاب الأليم، حتى يكون مقابل كل فعل كان منهم نوعًا من العذاب غير النوع الآخر، وبصفة غير الصفة الأخرى»[١].

* * *

(١) تأويلات أهل السنة (٩/٢١٨).

الخاتمة:

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، وبكرمه تبارك الطيبات، حمدا يليق بجلاله وجماله. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله، وصفوته من خلقه وحبيبه، اللهم صل وسلم وزد وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،،،،

فإنه من خلال دراستي للآيات التي ورد فيها العذاب العظيم في القرآن الكريم قد توصلت إلى أهم النتائج الآتية:

أولا: أن الله تعالى قرن في الذكر بين الأحكام الشرعية –أمرا ونهيا– بصورٍ من الترغيب والترهيب الدنيوي والأخروي لحث النفوس على الامتثال لها والعمل بمقتضاها.

ثانيا: أنه تعددت أوصاف العذاب في القرآن الكريم إلى أكثر من عشرين وصفا، كل وصف منها له موجباته من الذنوب والمعاصي، وأنه قد جانسها، فكان الجزاء من جنس العمل.

ثالثا: أنه تكرر حديث القرآن الكريم عن العذاب العظيم في خمس عشرة آية، وردت في تسع سور، منها سبع سور مدنية، وسورتان مكيتان.

رابعا: أن موجبات العذاب العظيم منها ما يتعلق بالجوانب العقدية كافتراء الكذب على الله والارتداد عن دينه، ومنها ما يتعلق بالسلوك المجتمعي بالتعدي على حقوق المجتمع الإسلامي من: السعي في تعطيل المساجد أن تؤدي دورها المنوط بها، ومن تفريق كلمته، ومحاربته، وزعزعة أمنه واستقراره، وتبديل أصوله وثوابته القائمِ عليها، وإشاعة الفاحشة فيه، وموالاة أعدائه، وإضعاف شوكته، وذلك ما يوضح الحكمة من تكرر وروده في الآيات المدنية أكثر من الآيات المكية، فإن القرآن الكريم عُنِي في العهد المكي بالجوانب العقدية، وفي العهد المدني بالجوانب السلوكية التي توطد أركان المجتمع.

خامساً: أن العذاب العظيم قد يكون في الدنيا، وقد يكون في الآخرة، وأنه غير خاص بالكافرين، بل يشمل عصاة المؤمنين الذين لم يتوبوا من ذنوبهم.

سادساً: أن العذاب العظيم لم يرد في القرآن الكريم إلا نكرة؛ وذلك لأن الله قد أخفى حقيقته لتذهب العقول في تخيله كل مذهب، فيكون ذلك أزجر عن اقتراف موجباته.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

صبري منصور صيام.

تبوك – المملكة العربية السعودية.

٢٥من رجب الأصم سنة: ١٤٤٥هـ.

٦/٢/٢٠٢٤م.

ثَبْت المصادر والمراجع باللغة العربيّة:

- أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن عبد الله ابن العربي، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، الثالثة، سنة: ٢٠٠٣هـ.
- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري لأبي العباس أحمد بن محمد القسطلاني، ط: المطبعة الكبرى الأميرية- مصر، السابعة، سنة: ١٣٢٣ هـ.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت.
- أسباب نزول القرآن لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، دار الإصلاح – الدمام، الثانية، سنة: ١٩٩٢م.
- أسنى المطالب في شرح روض الطالب لأبي يحيى زكريا بن محمد الأنصاري، ط: دار الكتاب الإسلامي.
- الأضداد في كلام العرب لأبي الطيب عبد الواحد بن علي الحلبي، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، الأولى، سنة: ٢٠١٢م.
- إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، الثانية، سنة: ٢٠٠٤م.
- إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين بن أحمد درويش، ط: اليمامة، ودار ابن كثير- بيروت، السابعة، سنة: ١٩٩٩م.
- إعلام الساجد بأحكام المساجد لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، ط: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – القاهرة، الرابعة، سنة: ١٩٩٦م
- الانتصاف فيما تضمنه الكشاف لابن المنير الإسكندري، بهامش الكشاف،
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل لأبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت، الأولى، سنة: ١٤١٨هـ.
- بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، الأولى، سنة: ١٩٩٣م.
- البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي، ط: دار الفكر – بيروت، سنة: ١٤٢٠هـ.
- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع لأبي بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، الثانية، سنة: ١٩٨٦م.
- بداية المجتهد ونهاية المقتصد لمحمد بن أحمد بن رشد، ط: دار الحديث – القاهرة، سنة: ٢٠٠٤م.
- البيان في غريب إعراب القرآن لأبي البركات ابن الأنباري، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، سنة: ١٩٨٠م.

- تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزبيدي، ط: دار الهداية.
- تأويلات أهل السنة لأبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى، سنة: ٢٠٠٥م.
- التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، ط: عيسى الحلبي– القاهرة.
- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور، ط: الدار التونسية– تونس، سنة: ١٩٨٤م.
- تراث أبي الحسن الحَرَالي المراكشي في التفسير، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي– الرباط، الأولى، سنة: ١٩٩٧م.
- التسهيل لعلوم التنزيل لأبي القاسم محمد بن أحمد، ابن جزي الكلبي، ط: دار الأرقم بن أبي الأرقم– بيروت، الأولى، سنة: ١٤١٦هـ.
- التعريفات لعلي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، ط: دار الكتب العلمية– بيروت، الأولى، سنة: ١٩٨٣م.
- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم للدكتور عبد العظيم المطعني، ط: مكتبة وهبة– القاهرة، الثالثة، سنة: ٢٠١١م.
- تفسير الراغب الأصفهاني لأبي القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني، ط: كلية الآداب– جامعة طنطا، سنة: ١٩٩٩م.
- تفسير الشعراوي للشيخ محمد متولي الشعراوي، ط: أخبار اليوم– القاهرة، سنة: ١٩٩١م
- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، ط: مكتبة نزار مصطفى الباز– المملكة العربية السعودية، الثالثة، سنة: ١٤١٩هـ.
- تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، ط: دار طيبة– المدينة المنورة، سنة: ١٩٩٩م.
- التفسير الكبير لأبي عبد الله محمد بن عمر الرازي، ط: دار الكتاب العربي– بيروت، الثالثة، سنة: ١٤٢٠هـ.
- تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم) لمحمد رشيد رضا، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب– القاهرة، سنة: ١٩٩٠م.
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم للدكتور محمد سيد طنطاوي، ط: دار نهضة مصر– القاهرة، الأولى، سنة: ١٩٩٧م
- تقريب التهذيب لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلان، ط: دار الرشيد– سوريا، الأولى، سنة: ١٩٨٦م.

- تهذيب التهذيب لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط: مطبعة دائرة المعارف النظامية- الهند، الأولى، سنة: ١٣٢٦هـ..
- جامع البيان لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ط: مؤسسة الرسالة، الأولى، سنة: ٢٠٠٠م.
- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (٤/١٦٦)، ط: دار الكتب المصرية- القاهرة، الثانية، سنة: ١٩٦٤م.
- الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه لمحمود صافي، ط: دار الرشيد- دمشق، ومؤسسة الإيمان- بيروت، الثالثة، سنة: ١٩٩٥م.
- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، المسماة: "عناية القاضي وكفاية الراضي" للقاضي شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي، ط: دار الكتب العلمية- بيروت
- حاشية الطيبي على الكشاف لشرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، ط: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الأولى، سنة: ٢٠١٣م.
- حاشية القونوي على تفسير البيضاوي لعصام الدين محمد بن إسماعيل الحنفي، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، الأولى، سنة: ٢٠٠١م.
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون لأبي العباس أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، ط: دار القلم، دمشق.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ط: دار الفكر- بيروت.
- ديوان الحماسة لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، الأولى، سنة: ١٩٩٨م.
- ديوان زهير بن أبي سلمى، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، الأولى، سنة: ١٩٨٨م.
- روح البيان لإسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي، ط: دار الفكر- بيروت.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، الأولى، سنة: ١٤١٥هـ.
- زهرة التفاسير لأبي زهرة محمد بن أحمد، ط: دار الفكر العربي، بتصرف.
- سنن ابن ماجه لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني المعروف باين ماجه، ط: دار إحياء الكتب العربية- القاهرة.
- سنن سعيد بن منصور لأبي عثمان سعيد بن منصور، ط: الدار السلفية- الهند، الأولى، سنة: ١٩٨٢م.

- سنن النسائي (المجتبى من السنن) لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي، ط: مكتب المطبوعات الإسلامية- حلب، الثانية، سنة: ١٩٨٦م.
- شرح حدود ابن عرفة لمحمد بن قاسم الأنصاري، ط: المكتبة العلمية، الأولى، سنة: ١٣٥٠ هـ.
- شرح العقيدة الطحاوية لأبي جعفر محمد بن علاء الدين الطحاوي، ط: المكتب الإسلامي- بيروت، الثامنة، سنة: ١٩٨٤م.
- شعب الإيمان لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ط: مكتبة الرشد- الرياض، الأولى، سنة: ٢٠٠٣م.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، ط: دار العلم للملايين- بيروت، الرابعة ، سنة: ١٩٨٧م.
- العدة شرح العمدة لأبي محمد عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسي، ط: دار الحديث- القاهرة، سنة: ٢٠٠٣م.
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان للحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، الأولى، سنة: ١٤١٦هـ.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط: دار المعرفة- بيروت.
- الفروق اللغوية لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري، ط: دار العلم والثقافة- القاهرة.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، ط: دار الكتاب العربي- بيروت، الثالثة، سنة: ١٤٠٧ هـ.
- الكشف والبيان لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت، الأولى، سنة: ٢٠٠٢هـ.
- لسان العرب لجمال الدين محمد بن مكرم المعروف بابن منظور، ط: دار صادر- بيروت، الثالثة، سنة: ١٤١٤هـ.
- المجتبى من مشكل إعراب القرآن للدكتور أحمد بن محمد الخراط، ط: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- المدينة المنورة، سنة: ١٤٢٦هـ.
- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات لأبي الفتح عثمان بن جني، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- وزارة الأوقاف المصرية.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن غالب عطية الأندلسي، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، الأولى، سنة: ١٤٢٢هـ.
- المحكم والمحيط الأعظم لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى سنة: ٢٠٠٠ هـ.

- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لمحمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، ط: دار الكتاب العربي- بيروت، الثالثة، ١٩٩٦م.
- المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله المعروف بابن البيع، ط: دار الكتب العلمية- بيروت، الأولى، سنة: ١٩٩٠م.
- مسند أبي يعلى لأبي يعلى الموصلي، ط: دار المأمون للتراث- دمشق، الأولى، سنة: ١٩٨٤م
- المصنف لأبي بكر عبد الرزاق الصنعاني، ط: المجلس العلمي- الهند، الثانية، سنة: ١٤٠٣هـ.
- معاني القرآن لأبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش، ط: مكتبة الخانجي- القاهرة، الأولى، سنة: ١٩٩٠م.
- معاني القرآن وإعرابه لأبي إسحاق الزجاج، ط: عالم الكتب- بيروت، الأولى، سنة: ١٩٨٨م.
- معاني النحو للدكتور فاضل صالح السامرائي، ط: أنوار دجلة- بغداد، الثانية، سنة: ٢٠٠٣م.
- معجم الزوائد ومنبع الفوائد لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، ط: مكتبة القدسي- القاهرة، سنة: ١٩٩٤م.
- المعجم الكبير لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، ط: مكتبة ابن تيمية- القاهرة.
- معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس، ط: دار الفكر، سنة: ١٩٧٩م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لجمال الدين ابن هشام الأنصاري، ط: دار الفكر- دمشق، الأولى، سنة: ١٩٦٤م.
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى، دار القلم- دمشق، والدار الشامية- بيروت، الأولى، سنة: ١٤١٢هـ.
- المقدمات الممهدات لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، ط: دار الغرب الإسلامي، الأولى ، سنة: ١٩٨٨م.
- الميزان في تفسير القرآن للسيد محمد حسين الطباطبائي، ط: مؤسسة الأعلمي- بيروت، الأولى، سنة: ١٩٩٧م.
- الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النَّحَّاس، ط: مكتبة الفلاح- الكويت، الأولى، سنة: ١٤٠٨هـ.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لأبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، ط: دار الكتاب الإسلامي- القاهرة.

ثَبْت المصادر والمراجع باللغة الإنجليزيّة اللاتينيّة:

thabt almasadir walmarajie biallughat al'injlyzyt allatynyt:

• tanzil alquran li'abi bakr muhamad bin eabd allah abn alearabii, ta: dar alkutub aleilmiati- bayrut, althaalithati, alsanati: 2003hi.
• 'iirshad alsaari lisharh sahih albukharii li'abi aleabaas 'ahmad bin muhamad alqistalani, ta: almatbaeat alkubraa al'amiriati-masr, alsaabieati, sanati: 1323 ha.
• 'iirshad al'aeda' 'iilaa mazaya alkitab alkarim li'abi alsueud aleimadii muhamad bin muhamad bin mustafaa, ta: dar alturath alearabi- bayrut.
• sabab nuzul alquran li'abi alhasan ealii bin 'ahmad bin muhamad bin ealii alwahidii, dar al'iislah - aldamam, althaaniatu, alsanati: 1992m.
• 'asnaa almatalib fi sharh rawd altaalib li'abi yahyaa zakaria bin muhamad al'ansari, ta: dar alkitaab al'iislamii.
• al'addad fi kalam alearab li'abi altayib eabd alwahid bin eali alhalbi, ta: dar alkutub aleilmiati- bayrut, al'uwlaa, sanati: 2012m.
• 'iierab alquran li'abi jaefar alnuhasi, ta: dar alkutub aleilmiati-bayrut, althaaniatu, alsanati: 2004m.
• 'iierab alquran wabayanuh limuhyi aldiyn bin 'ahmad darwish, ta: alyamamati, wadar aibn kathir- bayrut, alsabeu, alsanati: 1999m.
• 'iielam alsaajid bi'ahkam almasajid ladr aldiyn muhamad bin eabd allah alzarkashi, ta: almajlis al'aelaa lilmuazaf al'iislamii - alqahirati, alraabieati, sanatan: 1996m
• alaintisaf fima yadkhuluh alkashaf liabn almunir al'iiskandiri, bihamish alkishafi,
• 'anwar altanzil wa'asrar altaawil li'abi saeid eabd allah bin eumar bin muhamad albaydawi, ta: dar alturath alearabii - bayrut, al'uwlaa, sanati: 1418hi.
• bahr aleulum li'abi allayth alsamarqandi, ta: dar alkutub aleilmiati- bayrut, al'uwlaa, sanati: 1993m.
• albahr almuhit fi altafsir li'abi hayaan al'andalsi, ta: dar alfikr - bayrut, sinati: 1420hi.
• badayie alsanayie fi tartib alsharayie li'abi bakr bin maseud bin 'ahmad alkasani, ta: dar alkutub aleilmiati- bayrut, althaaniati, alsanati: 1986m.
• bidayat almujtahid wanihayat almuqtasad limuhamad bin 'ahmad bin rushda, ta: dar alhadith - alqahirati, sanati: 2004m.
• albayan fi 'iiesar ghurib alquran li'abi albarakat aibn al'anbari, alhayyat almisriat aleamat lilkitabi- alqahirati, sanati: 1980m.
• taj alearus min jawahir alqamus limurtadaa alzubaydi, ta: dar alhidayati.

• tawilat 'ahl alsunat li'abi mansur muhamad bin muhamad bin mahmud almatridi, ta: dar alkutub aleilmiat - bayrut, al'uwlaa, alsanati: 2005m.
• altibyan fi 'iierab alquran li'abi albaqa' eabd allah bin alhusayn bin eabd allah aleakbiri, tu: eisaa alhalbi- alqahirati.
• altahrir waltanwir limuhamad altaahir abn eashur, ta: aldaar altuwnusiati- tunus, sanati: 1984m.
• turath 'abi alhasan alharaly almarakishiu fi altafsiri, manshurat almarkaz aljamieii lilbahth aleilmii- alribati, al'uwlaa, alsanat: 1997m.
• altashil lieulum altahmil li'abi alqasim muhamad bin 'ahmadu, abn jazyi, ta: dar al'arqam bin 'abi al'arqamu- bayrut, al'uwlaa, sanati: 1416hi.
• altaerifat lieali bin muhamad bin ealiin alzayn alsharif aljirjani, ta: dar alkutub aleilmiati- bayrut, al'uwlaa, alsanatu: 1983m.
• altafsir albalaghiu lilaistifham fi alquran alkarim lilduktur eabd aleazim almateani, ta: maktabat wahbata- alqahirati, althaalithatu, sanati: 2011m.
• tafsir alraaghib al'asfahanii li'abi alqasim alhusayn bin muhamad al'asfahani, ta: kuliyat aladabi- jamieat tanta, alsanati: 1999m.
• tafsir alshaerawii lilshaykh muhamad mutawaliy alshaerawi, ta: 'akhbar alyawma- alqahirati, alsanati: 1991m
• tafsir alquran aleazim liabn 'abi hatim, ta: maktabat nizar mustafaa albazi- almamlakat alearabiat alsueudiati, althaalithati, alsanata: 1419hi.
• tafsir alquran aleazim li'abi alfida' 'iismaeil bin eumar bin kathirin, ta: dar tayibati- almadinat almunawarati, alsanati: 1999m.
• altafsir alkabir li'abi eabd allah muhamad bin eumar alraazi, ta: dar alkitaab alearabii- bayrut, althaalithati, sanati: 1420hi.
• tafsir almanar (tafsir alquran alhakimi) limuhamad rashid rida, ta: alhayyat almisriat aleamat lilkitabi- alqahirati, sanati: 1990m.
• tafsir alwasit lilquran alkarim lilduktur muhamad sayid tantawi, ta: dar alnahdat masir- alqahirat, al'uwlaa, sanatan: 1997m
• taqrib altahdhib li'abi 'ahmad bin eali hajar bin aleasqalan, ta: dar alrashida- surya, al'uwlaa, alsanati: 1986mi.
• tahdhib altahdhib li'abi alfadl 'ahmad bin ealiin bin hajar aleasqalani, ta: matbaeat dayirat almaearif alnizamiati- alhinda, al'uwlaa, sanati: 1326h..
• jamie albayan li'abi jaefar muhamad bin jarir altabari, ta: kuliyat alrisalati, al'uwlaa, alsanatu: 2000m.
• aljamie li'ahkam alquran li'abi eabd allah muhamad bin 'ahmad bin 'abi bakr alqurtibii (4/166), ta: dar alkutub- alqahirati, althaaniatu, alsanati: 1964m.

• aljadwal fi 'iierab alquran wasarfih wabayanih limahmud safi, t: dar alrashida- dimashqa, wamuasasat al'iiman- bayrut, althaalithati, alsanati: 1995m.
• hashiat alshihab ealaa tafsir albaydawy, albidayatu: "einayat alqadi wakifayat alraady" lilqadi shihab 'ahmad aldiyn bin muhamad alkhafaji, ta: dar alkutub aleilmiati- bayrut
Show less
• hashit alttyby ealaa alkashaf lisharaf aldiyn alhusayn bin eabd allah altayib, ta: jayizat dubayi alduwliat lilquran alkarim, al'uwlaa, alsanatu: 2013m.
• hashiat alqunawi ealaa tafsir albaydawi lieisam aldiyn muhamad bin 'iismaeil alhanafii, ta: dar alkutub aleilmiati- bayrut, al'uwlaa, alsanat: 2001m.
• aldur almasuwn fi eulum alkitaab almukawan li'abi aleabaas 'ahmad bin yusif bin eabd aldaayimi, ti: dar alqalami, dimashqu.
• almanthur fi altafsir bialmathur lijalal aldiyn eabd alrahman bin 'abi bakr alsuyuti, ta: dar alfikr - bayrut.
• diwan alhamasat li'abi tamaam habib bin 'uws altaayiy, ta: dar alkutub aleilmiat - bayrut, al'uwlaa, alsanatu: 1998m.
• diwan zuhayr bin 'abi salmaa, ta: dar alkutub aleilmiati- bayrut, al'uwlaa, sanati: 1988ma.
• ruh albayan li'iismaeil haqiy bin mustafaa al'iistanbuli, ta: dar alfikri- bayrut.
• ruh almaeani fi tafsir alquran aleazim walsabe almathani lishihab aldiyn mahmud bin eabd allah alhusayni al'alusi, ta: dar alkutub aleilmiati- bayrut, al'uwlaa, sanati: 1415hi.
• zahrat altafasir li'abi zahrat muhamad bin 'ahmada, ta: dar alfikr alearabii, bitasarufin.
• sunan aibn majah li'abi eabd allah muhamad bin yazid alqazwini almaeruf bayin majah, ta: dar alrueb fi alkutub alearabiat - alqahirati.
• sunan saeid bin mansuar li'abi euthman saeid bin mansurin, ta: aldaar alsalafiatu- alhinda, al'uwlaa, sanati: 1982m.
• sunan alnisayiyi (almujtabaa min alsinan) 'abi eabd alrahman 'ahmad bin shueayb bin ealiin alnasayiyi, ta: maktab almatbueat al'iislamiati- halb, althaaniatu, alsanati: 1986m.
• sharh nitaq abn earafat limuhamad bn qasim al'ansari, ta: almaktabat aleilmiati, al'uwlaa, alsanati: 1350 hi.
• sharh nazariat altuhawiat li'abi jaefar muhamad bin eala' aldiyn altahawi, ta: almaktab al'iislamia- bayrut, althaaminatu, alsanati: 1984m.
• shaeb al'iiman li'abi bakr 'ahmad bin alhusayn albayhaqi, ta: maktabat alrushdi- alrayadi, al'uwlaa, sanatu: 2003m.

• alsihah taj allughat alrahmaniat alearabiat li'abi nasr 'iismaeil bin hamaad aljawharii, ta: dar aleilm lilmalayin - bayrut, alraabieat , sanati: 1987m.
• aleadat sharh aleumdat li'abi muhamad eabd alrahman bin 'iibrahim almaqdisi, ta: dar alhadithi- alqahirati, alsanati: 2003m.
• gharayib alquran waraghayib alfurqan lihasan bin muhamad bin husayn alqimay alniysaburi, ta: dar alkutub aleilmiati- bayrut, al'uwlaa, alsanatu: 1416hi.
• fath albari sharh sahih 'abi alfadl 'ahmad bin ealiin bin hajar aleasqalani, ta: dar almaerifati- bayrut.
• alfuruq allughawiat li'abi hilal alhasan bin eabd allah aleaskarii, ta: dar aleilmi- alqahirati.
• alkashif ean haqayiq ghawamid altanzil li'abi alqasim mahmud bin eamriw bin 'ahmad alzakhshari, ta: dar alkutaab alearabi- bayrut, althaalithati, sanatan: 1407 h.
• alkashf walbayan li'abi 'iishaq 'ahmad bin muhamad bin 'iibrahim alnashufi, ta: dar alturath alearabia- bayrut, al'uwlaa, sanati: 2002hi.
• lisan alearab lijamal aldiyn muhamad bin makram almaeruf biaibn taeami, t: dar sadir - bayrut, althaalithati, alsanata: 1414hi.
• almujtabaa min mushkilat 'iierab alquran lilduktur 'ahmad bin muhamad alkharati, ta: majmae almalik fahd litibaeat almushaf alsharif- almadinat almunawarati, alsanati:1426h.
• almuhtasib fi tabyin wujuh shawadhi alqira'at li'abi alfath euthman bin jini, ta: almajlis al'aelaa lilshuyuwn al'iislamiati- wizarat al'awqaf almisriati.
• almuharir alwajiz fi tafsir alkitab aleazim li'abi muhamad eabd alhaqi bin ghalib eatiat al'andalusi aleilmiati, ta: dar alkutab- bayrut, al'uwlaa, sanati: 1422h.
• almuhkam walmuhit al'aezam li'abi alhasan ealii bin 'iismaeil bin sayidhi, ta: dar alkutub aleilmiat - bayrut, al'uwlaa sanati: 2000 hi.
• khazayin alsaalikin bayn manazil 'iiaak naebud wa'iiaak nastaein limuhamad bin 'abi bakr bin 'ayuwb abn qiam aljawziati, ta: dar alkitaab alearabii - bayrut, althaalithati, 1996m.
• almustadrik ealaa alsahihayn li'abi eabd allah alhakim muhamad bin eabd allah almaeruf biaibn albaye, ta: dar alkutub aleilmiati- bayrut, al'uwlaa, alsanati: 1990m.
• kubi 'abi yaelaa li'abi yaelaa almusili, ta: dar almamun lilturath - dimashqa, al'uwlaa, sanatan: 1984m
• li'abi bakr eabd alrazaaqani, ta: almajlis aleilmii- alhinda, althaaniatu, alsanati: 1403hi.
• maeani alquran li'abi alhasan saeid bn museadat al'akhfashi, ta: maktabat alkhanji- alqahirata, al'uwlaa, alsanatu: 1990m.
• maeani alquran wa'iierabuh li'abi 'iishaq alzujaji, ta: ealim alkutab- bayrut, al'uwlaa, alsanatu: 1988m.

• maeani alnahw lilduktur fadil salih alsaamaraayiy, ta: 'anwar dijlata- baghdad, althaaniati, sanati: 2003m.
• muejam alzawayid wamanbae alfawayid li'abi alhasan nur aldiyn eali bin 'abi bakr bin sulayman alhaythami, ta: maktabat alqudsi- alqahirati, sanati: 1994m.
• almuejam alkabir li'abi alqasim sulayman bin 'ahmad bin 'ayuwb altabrani, ta: maktabat abn taymiati- alqahirati.
• muejam maeayir allughat li'ahmad bin farisin, ta: dar alfikri, alsanati: 1979m.
• almughaniy allabib ean kutub al'aerab lijamal aldiyn abn hisham al'ansari, ta: dar alfikr - dimashqa, al'uwlaa, sanati: 1964m.
• almufradat fi gharayb alquran lilraaghib al'asfahani, dar alqalami- dimashqa, waldaar alshaamiatu- bayrut, al'uwlaa, sanatu: 1412h.
• shuyukhat almumahidat li'abi alwalid muhamad bin 'ahmad bin rushd alqurtubi, ta: dar algharb al'iislamii, al'uwlaa , alsanati: 1988m.
• almizan fi tafsir alquran lilsayid muhamad husayn altabtabayiy, ta: almuasasat aleilmiati- bayrut, al'uwlaa, alsanatu: 1997m.
• alnaasikh walmansukh li'abi jaefar alnahaas, ta: maktabat alfalahi- alkuayt, al'uwlaa, sanatu: 1408h.
• nazam aldarar fi tanasub alayat walsuwr li'abi alhasan 'iibrahim bin eumar alfarashi, ta: dar alkitaab al'iislamii- alqahirati.